سميح القاسم

مقالات مختارة

الكتاب : مقالات مختارة

الكاتب: سميح القاسم

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

القاسم ، سميح

مقالات مختارة / سميح القاسم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١١٨ ص ، ١٨ سم .

الترقيم الدولى: ٠ – ١٤٨ – ٤٦٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠٢٠٥ / ٢٠٠٨

مقالات مختارة





مقدمة

يعد الشاعر سميح القاسم تجربة حياتية فريدة، يزود من خبراته كل من يقبل على كتاباته، فتفرد هذا الرجل لا يكون أبداً من شاعريته أو حبة المفرط للوطن الذي ولد فيه ووجده مأزوما يعاني الاحتلال، بل جاء من قدرته علي التعبير عما يجيش بصدره شعراً ونثراً، فقارئ مقالات القاسم يجد فيها رونقاً خاصاً، فالكلمات معبرة والأفكار مرتبطة تسير في سياق منتظم، ويبدو فيها العمق والجرأة، كأنه يكتب في عالم بلا قيود ولا ضوابط غير تلك الأخلاقية منها.

إن الإبحار في مقالات شاعر القضية الفلسطينية الأول سميح القاسم أمر ينطوي على متعة ما بعدها متعة فتراه يتحدث عن حياته التي يعيشها رغم أنف هذه السلطة الإسرائيلية المتغطرسة التي طالما أدخلته في غياهب السجون، وفرضت عليه الإقامة الجبرية وكأنه يستمتع بذلك، ولا يجد القارئ أبداً في هذه الكتابات شبهة تشاؤم، بل هو من دعاة الأمل والتفاؤل، وربما يدلل على ذلك بكثرة حديثة عن التجارب السابقين ممن تحرروا من احتلال دام قرون.

يبدو جلياً من كتابات القاسم المقالية أن هناك رسالة واضحة لدى المرسل يسعى وراء إيصالها بأقصر الطرق وأيسرها وأمتعها، ولذلك يغيب عن قارئ هذه المقالات الملل ومشتقاته، فكيف يمل القارئ وهو يرى الأفكار تتحرك أمام عينه والكلمات تتراقص لتعزف لحناً جميلاً لا يملكه إلا ملحن مبدع، هذه الروعة في الأداء تجدها في كتاباته مهما تباينت الموضوعات، فالسياسة عنده ممتعة وكذلك الفن والاقتصاد وعلم النفس والاجتماع.

مقالات القاسم هي خزينة تجارب وسيرة حياة ووعاء للفكر لا ينضب يتحدث فيها عن الديمقراطية المكارثية الإسرائيلية، وينتقل لسرد العلاقة غير المتكافئة بين حكومة محتل وشعب لا ينام ما دام سليب الحرية. فالحياة عنده على هذه الأرض متعة ولو كان القتل هو الجزاء، وفي هذه الأوراق أيضاً تعبير خالص عن موقف الكاتب من الأحداث الكبرى التي أسهمت في إعادة أوراق القضايا العربية، وفي خضم تداعي هذه الأحداث وتحت نير المحتل لا ينسى أبداً أن يعرض لوجهة نظره في سينما اليوم وإعلامه وثقافته.

الناشر

ديمقراطية إسرائيل المكارثية



في حوارنا مع دعاة الديمقراطية البورجوازية، نذكرهم دائماً بأن ديمقراطيتهم تخفي وراءها دكتاتورية الطبقات المستغلة في المجتمع الرأسمالي والتي هي دائما أقلية الشعب، ونؤكد أن البرجوازية هي التي تتمتع بهذه الديمقراطية وتحرمها الجماهير الشعبية أو تضيق تطبيقها عليها. وتاريخ المجتمعات البورجوازية حافل بجرائم الكبت الفكري والقمع الدموي للصرخات الشعبية المرتفعة، احتجاجا على مظاهر العسف الطبقي الذي تتعرض له الجماهير الواسعة باسم «الديمقراطية» وبحجة الدفاع عنها!

وإسرائيل التي يحكمها هذا الطراز من الديمقراطية شهدت منذ قيامها عشرات المظاهر من الإرهاب الفكري، كان آخرها إسقاط مسرحية «قوة القوة»، ومنعها من الظهور على المسارح الإسرائيلية، بضغط من الصحف اليمينية التي جندت عدداً ضخماً من الأقلام البورجوازية في حملة مسعورة ضد هذه المسرحية. وما دمنا نتحدث عن المسرح فنود أن نعيد إلى الأذهان ما حدث في سنوات الخمسينيات، حين استرعت حملة مماثلة ضد مسرحية «أقذف به إلى الكلاب» التي وضعها كاتب إسرائيلي هوى موسينزون، معلنا بها مخاوف الشعب الإسرائيلي من دكتاتورية من غوربون، وأجهزة الظلام

التي نشطت في خدمته. وآنذاك أسقطت مسرحية «أقذف به إلى الكلاب» كما أسقطت الآن مسرحية «قوة القوة» تتصدى للمكارثية الأمريكية وموجة «صيد الساحرات» الدموية.

مـن أحـداث تلـك الموجـة، إعـدام يوليـوس وأيتيلروزنبـرغ الأمريكيين، على الرغم من عدم ثبات التهمة التي وجعت إليهما، وهي التجسس وتسريب أسرار القنبلة الذرية إلى الاتحاد السوفييتي، على الرغم من الحملة العالمية لإنقاذهما، وفي مسرحية «قوة القوة» إشارات واقتباسات واضحة من أقوال يوليوس روزنبرج قبل إعدامه، مثل «حسين يشنون الحرب – فإن كل من يدعو إلى السلام يتهم بالشيوعية، وكل شيوعي هو عميل أجنبي بالقوة!».

لـم يتجاهـل مقـدما المسـرحية «طوفـانو» و«أجمـون» الجـو الشوفينى الخانق في البلاد، لكنهما اتخذا موقفاً غير سليم من ها الجو حين حاولا خلق توازن في مسرحيتهما بين الولايات المتحدة المكارثيـة، وبـين الاتحـاد السـوفييتي! ولكـن هـذه الموازنـة الفاشـلة والسيئة لـم تغفر لهما لـدى كـلاب صيد الولايـات المتحـدة، الـذين يرفضـون أي نقـد مرجـه إلـى الولايـات المتحـدة ونظامهـا الوحشـي.. «فهذه بصقة من البئر التي نشرب بها».. كما كتب ن. بن عامى في صحيفة «معريب»!

إذا كان فرسان السجود قد نجحوا اليوم في فرض هذه العملية العنيفة ضد حرية الفكر في أبسط ملامحها، فمن حقنا الإعراب عن أشد القلق على بقايا الديمقراطية، يوم غد! وحتى لا تتكرر مأساة «المكارثية» في إسرائيل، يترتب على جميع الأوساط والعناصر الإنسانية الديمقراطية أن تحزم في عمل شجاع ضد التدهور المخيف نحو حضيض صيد الساحرات!



منهم العنف و منا العنفوان

زفت إليّ مكالمة تليفونية نبأ يقول إن الشرطة تشن حملة واسعة لاعتقال ديواني الأخير «ويكون أن يأتي طائر الرعد».. ولم أكد أعيد سماعة التليفون إلى موضعها حتى بلغني استدعاء من شرطة حيفا.. وكان تحقيقا قصيرا، وأبديت رغبتي في تقديم شهادة خطية، وتم ذلك في أقل من ساعة.. وبعد التفتيش في منزلي ومصادرة ما لدي من الديوان بشرتني الشرطة بصدور أمر باعتقالي لمدة يومين، قضيت أحدهما في غرفة التوقيف بمركز بوليس حيفا، وحللت في اليوم الثاني ضيفاً على سجن الجلمة.. ثم مثلت أمام قاضي محكمة الصلح في حيفا، وتم إطلاق سراحي لموعد المحاكمة، بكفالة مقدارها ألف ليرة إسرائيلية لا غير.

في قاعة المحكمة كان في انتظاري عدد من رفاقي فعلمت منهم أن الصحافة الصهيونية أصدرت حكمها علي.. وحين طلب مني مندوب وكالة «عيتيم» تفسيراً لما حدث لم أخف عنه احتقاري للصحف التافهة التي اقتنصت النبأ وراحت تحرض جماهير قراءها.. وأكد لي أنه سينشر ما أقوله بالضبط، وبالفعل نشر ما قلته له بالضبط.

أما صحيفة «معاريف» كبرى الصحف الإسرائيلية فقد أبرزت سواها من الصحف البورجوازية الإثارة والنهش.. في اليوم الأول نشرت نبأ مصادرة الديوان على صفحتها الأولى.. في اليوم الثاني نشرت نبأ الاعتقال ونهمة عدم التقيد بأوامر الرقابة وتهمة التحريض على التمرد.. وفي اليوم الثالث نشرت نبأ من نوع آخر.. فعلى صفحتها الثانية وبعنوان صارخ كتبت إنني قررت مغادرة البلاد نهائياً.. لماذا؟ لأنني– على حد زعمها– أرغب في الزواج من فتاة مسلمة من المناطق المحتلة، ولتعذر الأمر في إسرائيل فقد قررت الرحيل، وانحدرت «معريب» إلى درك أسفل حين غزلت بمنوال الطائفة، زاعمه أنني أعاني من عداء الدروز والمسلمين في آن واحد.

لم تكن هذه المرة الأولى التي أتعرض فيها لهجوم من الصحافة الرجعية – وهو أمر لا يعيبني قط– ولذا لم يتعد شعوري نحو هذه الحملة الأخيرة حدود الاحتقار، لكن شيئاً آخر حدث فيما بعد ودفعني إلى التعقيب على سحابة الرماد.. فقد كتب عاموس كينان، الكتاب العبري المعروف، تعليقاً في صحيفة «هآرتس» دفاعاً عن حرية الفكر، ونشرته له الصحيفة بصورة «إعلان» «نشر في الاتحاد– الجمعة ٩مايو».. وعلى الأثر هرعت جماعة من الشوفينيين للتحريض عليه وعلى، في محاولة لإسكات هذه الصوت الذي انفجر فجأة ليقول: أنا أحتج؟ والذي حطم مؤامرة الصمت

الذي تحاول السلطات وأجهزة دعايتها فرضه على ما يحدث من إجراءات القمع والإرهاب المتبعة ضد العرب بشكل عام، وضد جميع مقاومي العدوان والاحتلال، والدعاة الحقيقيين للسلام القائم على العدل.

في «هآرتس» «٨مايو ٦٩» شن أحدهم ويدعى م. رام من تل أبيب، هجوماً هستيرياً لم يستهدف عاموس كينان وحده، بل تعداه إلى طبعاً، وإلى الشاعرة فدوى طوقان «آكلة لحوم البشر» على حد قوله «رام» هذا، الذي راح يكيل المديح للاحتلال ويعدد فضائله التي لا تحصي في المناطق المحتلة.. وبعد أن يتحداني سيادته بأنه أجرؤ على التصرف في «وطني الثاني» «الاتحاد السوفييتي»– كما يقول– بالشكل الذي أتصرف به هنا في إسرائيل، يختتم هجومه الخائف بدعوة عاموس كينان إلى الصمت، وإفساح المجال «لمن هم أفضل منه».

في ١٢ مايو نشرت الصحيفة نفسها هجوما مماثلاً لموتور يدعى تسفي شيلوح «من هرتسليا»، يسخر فيه من «المناضل الشجاع عاموس كينان»، وينهال بالتقريع على المثقفين الذين «يحاولون زعزعة معنويات الشعب اليهودي في إسرائيل».. و«زعزعة حقنا في امتلاك البلاد».. «وتفنيد حربنا الدفاعية»، كما نجح بعض المثقفين في زعزعة ثقة الشعب الأمريكي في الحرب التي فرضها

عليه الفيتكونغ في فيتنام!.. بينما لا يريد الأمريكيون أن يفرضوا على فيتنام نظاماً استبدادياً كما يحدث في تشيكوسلوفاكيا!.. وبهذا المنطق المريض يواصل هذا الموتور هجومه المحموم على الأخلاق الإنسانية في أبسط أشكالها.

أما الذي كتبه يعقوب أورنشتاين في «دافار» «١٥/٥» فقد كان طرازاً آخر.

يفتتح حديثه بتصنيف «الدروز» إلى جيدين وسيئين.. والسيئون «أمثال كمال جنبلاط اللبناني وسميح القاسم الذي يعيش في دولة إسرائيل، يرون في إسرائيل كل الشر الموجود في الشرق الأوسط، وهو على استعداد لأن يبذلوا كل ما في وسعهم لاستئصال «هذا السرطان» من منظر المنطقة. وقد ذكرت اسم سميح القاسم واسم كمال جنبلاط على صعيد واحد، لأن الاثنين، مع أنهما ينشطان في بيئات مختلفة. يجمعهما طريق واحد- فكلاهما يستنزلان كل وحيهما من مصدر واحد، من موسكو. اللبناني يكتفي بميول يسارية، والإسرائيلي عضو في راكح الذي لا حاجة بنا لتفسير نظرته إلى إسرائيل وعلاقته بها، هذه الأمور بسيطة للغاية، وواضحة ومعروفة للجميع بحيث لم أكن أنوي ذكرها كما أنني لم أكن لأقول إن الماء رطب والملح مالح».

ثم يشير أورنشتاين هذا إلى أن عاموس كينان ارتكب خطأين شديدين من شأنهما أن يبلبلا الجمهور!.. الأول بالنسبة للرقابة والديوان والاعتقال، والثاني بالنسبة لقومية سميح القاسم.. «فهو ليس عربياً.. بل إنه ليس مسلماً.. فهو درزي». ويكرر القول ثانية: «سميح القاسم ليس عربياً، وهو ليس- كما قلت- مسلماً. وإذا كان راغباً في الحرب من أجل أفكار «فتح» فهذا شأنه الخاص. وهو يشن هذه الحرب ليس لأنه يحس بآلام شعبه، آلام الشعب الدرزي، بل لأنه يستند وحيه من راكح، من موسكو».

لقد دار ومازال يدور، في إسرائيل وفي الأوساط اليهودية العالمية، حوار حول السؤال: من اليهودي؟ وحول السؤال الآخر: هل يشكل اليهود قومية؟ ومن ثم هل يصح اعتبار الدين أساساً لتقرير القومية؟

ويبدو أن أورنشتاين هذا، من أولئك الذين يعانون من عقدة انعدام القومية، وهو يبحث عن قومية له في التعصب الديني، ويحاول- بوعي أو دون وعي- أن يفرض هذا المقياس الديني الخاطئ على العالم بأسره ليبرر وضعه الخاص.. وما دام يدور في هذه الحلقة الضيقة من قصر النظر والجهل الذي قد يقود صاحبه إلى مواقع العقد الشوفينية القاتلة، فهذا شأنه الشخصي!

وإليكم هذه الحادثة..

لعلكم تذكرون الكاتب البريطاني أرنولد ويسكر الذي زار البلاد بدعوة من وزارة الخارجية وقابلني خارد نطاق البرنامج الذي أعده له أصحاب الدعوة. في أعقاب الحديث الذي دار بيني وبين ويسكر، يبدو أن صورة أخرى تكونت لديه عن حقيقة الأوضاع الداخلية في إسرائيل «واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط».. وحين عاد إلى لندن أرسل إلى «هآرتس» رسالة يعرب فيها عن معارضته لأوامر الاعتقال والإقامة الجبرية، وإثبات الوجود والاعتقال المنزلي والرقابة المفروضة على «وعلى جميع رفاقي وزملائي الشعراء والأدباء العرب المقاومين للصهيونية والاضطهاد القومي».

ويبدو أن المسئولين أغضبتهم جداً هذه الرسالة التي نشرتها «هآرتس»، وأخذو يتحينون الفرص لإقناع أولئك الذين يشككون في جدوى إجراءاتهم وأنظمتهم، بأن الأمن رائدهم، وسلامة الجمهور سلاحهم. على كل حال، قريباً سأمثل أمام المحكمة.. وأنتم جميعاً مدعوون للمشاهدة ولإصدار حكمكم الخاص.. وحتى ذلك الحين، وحتى اللحظة الأخيرة من عمر الطاغوت الأخير: منهم العنف ومنا العنفوان!



سموم.. بالألوان الطبيعية

ليس من المنكر أن يحب أحدهم مشاهدة الأفلام..
فالسينما أعظم فنون العصر على الإطلاق، إلى جانب
كونها أخطر أجهزة الدعاية وأوسعها انتشاراً وأعمقها
أثراً..
لكن المنكر، أن يدفع أحدهم نقوده، ثم يجد نفسه
مضطراً لمغادرة صالة العرض محنقاً شاتماً قبل النهاية
السعيدة!

حدث لي ذلك أكثر من مرة.. ورغم الإيمان المغلظة بألا «أفعلها ثانية»

- أن أذبح نقودي على أعتاب دور السينما- كنت التفت إلى نفسي من أسبوع لأسبوع لأجدني متلبساً «بالعملة» نفسها، أمام شباك التذاكر.

أمس الححت على صديق لي بأن يشاركني المتعة بمشاهدة فنان من ذوي الأرصدة الضخمة على الشاشة البيضاء.. واسم هذا الفنان أنتوني كوين.

إنه ممثل حقيقي، وليس مجرد "نجم بارد"، كسائر نجوم أمريكا الذين لا يحملون من المواهب سوى الوسامة والقسامة وحسن تكوين القامة!

كان شباك التذاكر مغلقاً. نفدت التذاكر جميعها.. ولم ينقذني من الخيبة سوى غمزة من بعض خلق الله: كم تريد.. تذكرتين؟

تفضـل، سـبع ليـرات وسـتون أغـورة.. لا تنـاقش.. أنـت تـرى أنـك صاحب بخت، كثيرون الذين يدفعون الثمن عن طيب خاطر!

ودفعـت الـثمن.. لا عـن طيـب خـاطر، لكـن خضـوعاً لإغـراء الممثل ذي الوجه القبيح.. أنتوني كوين.

اسـم الفـيلم «السـاعة الخامسـة والعشـرون» وبـالألوان الطبيعيـة الحـارة.. الموسـيقى جميلـة جـداً، والمقعـد مـريح جـداً.. والجمهـور هادئ جداً.

تـدور أحـداث الفـيلم في رومانيـا وعـدد مـن الـدول الأوروبيـة.. أثناء الحرب العالمية الثانية، وتروي المشاهد المثيرة قصة رجل يعيش قرير العين مع زوجته وطفليـه، ولا يفهـم شـيئاً عـن الحـرب.. ولكـن شـاويش القريـة يحب زوجة هـذا الرجـل الطيـب، ويظـن الشـاويش أنـه حتى ينال المحبوبة المتمردة لابد له من إبعاد زوجها.

وفي طرفة عين يلفى الزوج المسكين نفسه في معسكر اعتقال مع عدد كبير من اليهود، ويحاول إقناع قائد المعسكر بأن خطأ ما قد وقع، وإنه مسيحي مؤمن بالأقانيم الثلاثة، وليس يهودياً.. وتذهب كل محاولاته مع الريح.. وتكمـل المصائب حين يبلغ بقرار زوجته الطلاق منه.. ويتورط، من حيث لا يدري، مع النازيين.

وتنتهـي الحـرب بهزيمـة سـاحقة لزبانيـة هتلـر.. وتبـدأ محاكمـة نيرنبرج الشهيرة.. ثن يتضح أن المسكين بين المتهمين بالتعاون مع

النازيين.، وتمتلئ قاعة المحكمة، ويتلو محامي النيابة لائحة الاتهام الطويلة العريضة، ثم يقف محامي الدفاع ليرد التهمة عن الضحية البريئة.. بين الأدلة التي حملها «الدفاع» رسالة كانت قد كتبتها الزوجة التي فرض عليها الطلاق، إلى زوجها الذي فرض عليه أن يكون يهودياً و«نازيا» في وقت واحد!

إلى هذا الحد ظلت أحداث الفيلم مثيرة وممتعة، وظل المقعد الذي أغوص فيه مريحاً، وبلا «سابق إنذار» نسمع محامي الدفاع وهو يقرأ بصوت «عاطفي ومؤثر» فقرة من رسالة الزوجة "الغلبانة" تقول فيها إن جنود الجيش الأحمر أسقوها الفودكا، ونزعوا عنها ثيابها، ثم..!

وهنا. ماذا تنتظرون من امرئ يعيش ببقايا أعصاب؟!

لقد تحجر كل شيء من حولي، وغامت عيناي!

أهذا هو كل ما صنعه الروس في الحرب العالمية الثانية؟ وحتى لو كانت هناك حادث اغتصاب من هذا النوع، فهل تنسى أمريكا عشرين مليون شهيد من أبناء الاتحاد السوفييتي؟ وهل تنسى أمريكا أن أول من سقط على أبواب الرايخ الألماني كان جنديا من الجيش الأحمر؟

لا.. إن أمريكا لم تنس.. ولا يمكن أن تنسى القبضة التي حطمت جمجمة هتلر وأنقذت الإنسانية!

ولكن أمريكا.. أمريكا الرأسمالية الاستعمارية.. أمريكا جونسون ومكنمارا، تتناسى، وتفعل كل شيء ممكن لمقاومة الضوء النظيف.. ضوء الاشتراكية الذي يواكب مسيرة الشمس ويغمر العالم!

وأمريكا مجرمة الحرب، ليست وحيدة في مهنة العداء للاتحاد السوفييتي والعداء للاشتراكية والتحريض عليها.. لقد وجدت لها بعض الزيول في أرض الله الواسعة.. لكن من كان يتصور أن قوماً يدعون تمثيل الشعب اليهودي، يمكن أن يهينوا ضحايا هذا الشعب، بشكل قد يعجز عنه، حتى أولئك الذين فقدوا القطرة الأخيرة من ماء وجوههم.

وجدتني أخطف نفسي من المقعد الذي كان مريحاً، وأغادر القاعة محنقاً شاتماً.. وأنا الآن أضع أسفي، لا على النقود التي فقدتها، بل على النفوس التي تحقنها أمريكا بالسم، وتحت بصر المسئولين في إسرائيل، وبموافقتهم التامة بلا شك!

مجزرة دير ياسين

بين الأخلاق والتكتيك العسكري



منذ النكبة، وعلى امتداد أكثر من ربع قرن، عانى الشعب العربي الفلسطيني ألواناً من الكوارث.. ويوماً بعد يوم اشتدت مأساته عمقاً واتسعت أبعاداً. لكن جميع الضربات المتتالية التي نزلت على جسم هذا الشعب وكرامته لم تستطع أن تطمس اسماً لا يمر بشفة ولا يسقط على سمع إلا وترتعش الأبدان وتنقبض المشاعر.. إنه الاسم الفاجع «دير ياسين».. دير ياسين، أول قرية عربية نكبت بالاحتلال الدموي في ربيع ١٩٤٨ « ٩ إبريل»، وأصبحت رمزاً لمأساة الشعب العربي الفلسطيني ورمزاً لقسوة الصهيونية ومرارة الكراهية، دير ياسين! ألم فلسطيني، على العالم ألا ينساه. ألم في طريق الآلام نحو جلجلة العصر.. ألم نعيشه مع غيرنيكا الإسبانية، ليدتسى التشيكية، ومع سونجم وماى لا الفيتناميتين!

أكثر من ربع قرن مر على تلك المجزرة الرهيبة، لكنها مازالت تطفو على السطح لتبعث الآلام ولتجدد الحوار، ثم تعود لتسقر في أعماق تكويننا النفسي.

مازال مرتكبو الجريمة يحاولون إقناع أنفسهم بطهارة أيديهم، وإقناع العالم ببراءة فعلتهم.. والشعب الضحية مازال يجدد الولاء

لقضـيته ويرفـع صـوته مطالبـاً بحقـه المشـروع فـي الحيـاة الآمنـة فـي وطنه.

فـي الثلاثـين مـن أغسـطس ١٩٦٨، وفـي الملحـق الأسـبوعي لصحيفة «هآرتس» كتب أورى ميلشتاين مقالاً إضافياً حول «عملية» دير ياسين، عرض فيه أكثر من وجهة نظر بالنسبة للمجزرة. ورغـم أم المقـال بشـكل عـام يعتبـر دفاعـاً عـن مرتكبـي الجريمـة فـإن القـارئ يستطيع اكتشاف الحقائق من فقرات وتفصيلات موزعه بين صفحات المقال الأربع.

منذ مطلع مقاله، يعترف الكاتب بأن قضية دير ياسين «كانت نقطة تحول في العلاقات بين اليهود والعرب».

ومـن ثـم يصـف ميلشـتاين الوضـع السياسـي والعسـكري فـي الـبلاد فـي ذلـك الوقـت فيقـول إن قـرار التقسـيم الـذي يجعـل مـن القـدس مدينـة دوليـة قوبـل بمعارضـة المنظمتين الإرهـابيتين «إيتسـل» «أرغـون تسـفأبلئومى- المنظمـة العسـكرية القوميـة» و«ليحـى» «لوحمى حيروت يسرائيل- المحاربون لحرية إسرائيل».

ولـذا فإن هـاتين المنظميتين قررتا العمـل في القـدس ومنطقتها بشـكل منفـرد رغـم أنهمـا وافقتـا علـى الانـدماج مـع منظمـة الهجانـاة «الدفاع» في أنحاء البلاد الأخرى.

كـان قائـد الهجانـاة فـي القـدس يـدعى دافيـد شـلتيئيل «وكـان يعتبـر نفسـه القائـد الوحيـد الـذي يتمتـه بالصـلاحية».. ولكـن جماعـة

«إيتسل» و«ليحى» رفضا الاعتراف بشلتيئيل قائداً عسكرياً، ورأويا فيه ممثلاً شخصياً لدافيد بن غوريون، تتلخص مهمته في القضاء عليهما وفي المحافظة على ألا تخرج المعركة عن الإطار الذي تم تصميمه في اللقاء بين جولدا مائير والملك عبدالله.

في هذه الظروف نشطت منظمتا «إيتسل» و«ليحى» فقامتا بعدة عمليات تخريبية في شعفاط والشيخ بدر وفي سائر تجمعات السكان العرب، واتخذت هذه العمليات، كما يوحى المقال، طابع الهجوم المسلح على الأماكن العامة وقتل المدنيين بالجملة، ونسف المنازل على أصحابها في ساعات الليل!

ويقول كاتب القال: محاربوليحى، بقيادة درور ويوعد «فتحيا زليبنسكى» طهروا الشيخ بدر «المكان الذي تقوم عليه الكنيست اليوم»، وروميما ولفتا. وقد فعلوا ذلك بواسطة النسف الليلي للمنازل العربية والهجومات المفاجئة على مراكز «المشاغبين» «الضحايا في لغتهم تعني المشاغبين!».

وقد وصف تقرير وضعه رجال الهجاناة عمليات العصابتين المذكورتين بقوله: «لقد ارتكبوا «جماعة ليحى» عمليات سطو وابتزاز أموال من الأثرياء».

وفي ٢٩ فبراير ١٩٤٨ «سرقوا أموالاً من خزينة البلدية وفي اليوم نفسه سرقوا سيارة محملة بالخنازير وابتزوا ألف ليرة من التجار،

أصـحابها».. «وسـرقة السـيارات كانـت عمليـة يوميـة».. ورجـال «إيتسـل» أيضـاً – يضـيف التقريـر – أخـذوا نصـيبهم مـن هـذه العمليات.

لكـن هـذا «العـداء» بـين الهجانـاة مـن جهـة وبـين «إيتسـل» و«ليحي» من جهة أخرى لم يكن عميقاً، ولقد دار حول الأسلوب دون المبـدأ، لـذا فقـد اتصـل شـلتيئيل أكثر مـن مـرة بقائـد «إيتسـل» مردخايكـاوفمن «صـاحب الاسـم المسـتعار: رعنـان»، واتصـل أيضـا بقائد جماعة «ليحي» يهوشعزطلر، في محاولات متكررة لاستيعاب المنظمتـين كـل علـى حـدة أو لضـربهما الواحـدة بـالأخرى، ليخلـو المجـال لمنظمـة الهجانـاة.. وفشـلت جهـود شـلتيئيل ولكـن هـذا لـم يمنعـه مـن التقـرب إلـى قـادة المنظمتين حتـى فـي ذروة عمليـة ديـر ياسـين، رغـم أن الهجانـاة حاولـت فيمـا بعـد الظهـور بمظهـر البـريء والمستنكر للجريمة.

المجزرة

إحدى محطات الوقود في نتانيا يملكها اليوم رجل يدعى فتحيا زليبنسكي. في عام ١٩٤٨ كان يدعى «يوعد» وقد اضطر للتخفي وراء هذا الاسم لأنه كان من قادرة منظمة «إيتسل» في ذلك الوقت. و«يعود» أو «زليبنسكي» هذا كان قائد قوة «إيتسل» في عملية دير ياسين. أما قائـد القـوة الثانيـة التـي اشـتركت فـي العمليـة، وهـي مـن

جماعة «ليحى» فقد كان يدعي في حينها «غيورا» أما اليوم فلم يعد بحاجة إلى إخفاء اسمه الحقيقي «بن صيون كوهين».

ولماذا وقع اختيار الإرهابيين على قرية دير ياسين التي يقطنها ٥٠٠ عربي، دون سواها؟

تقع القرية المنكوبة على تلة ترتفع ٨٠٠ متر عن سطح البحر «غربي القدس»، وتشرف على عدة طرق ومستوطنات، الأمر الذي يمنحها أهمية استراتيجية كبيرة، وقد لفت موقعها هذا أنظار الإرهابيين بشكل خاص.. ولكن الهدفين الأساسيين من العملية كانا:

١- «تطهير» المنطقة، التي يسكنها كثيرون من اليهود، من السكان العرب.

٢- «رفع معنويات» المستوطنين اليهود في القدس وضواحيها.

وكان هناك سببان عسكريان آخران، أولهما أن دير ياسين كان نقطة هامة لحماية القسطل ومحطة في طريق الامتدادات العربية واتضح هذا الأمر فيما بعد فبعد سقوط دير ياسين بأيم سقطت «القسطل»..

والسبب الآخر أنه كان يجرى إعداد مطار على مقربة من القرية، لذا فقد سارع الإرهابيون إلى ضربها.

وبدأ الإعداد لعملية الغزو الدامية.

وضـعت الخطـة التـي تقضـى بـأن تتحـرك قوتـان تابعتـان لإيتسلوليحى، باتجاه دير ياسين من الجنوب ومن الشمال لاحتلالها بعملية تشبه عملية «إطباق الملقط».

وحسـب الاتفـاق بـين المنظمتـين فقـد قـرر أن يـتم التزويـد بالسلاح من قبل جماعة «إيتسل» التي تمتلك مصنعاً للرشاشات الصغيرة من طراز «ستينغن»، أما جماعة لحى فقط التزمت بإعداد المتفجرات الضرورية للعملية.

موقف الهجاناة

قلنا إن الهجاناة حاولت بشدة أن تتنصل من جريمة دير ياسين لكن الوثائق التي افتضح أمرها فيما بعد أكدت المشاركة النظرية والعملية لهذه المنظمة في المجزرة التي هزت الرأي العام الإنساني، فقد جاء في رسالة بعث بها شلتيئيل إلى أحد قادة العملية:

«علمنا أنكم تنوون القيام بعملية ضد دير ياسين، وبودي أن ألفت انتباهكم إلى حقيقة كون احتلال دير ياسين والسيطرة عليه جزء من مخططنا العام».

أنكرت قيادة الهجاناة وجود هذه الرسالة، لكن كاتب المقال يؤكد أنه رأى نسخة عنها في ملفات الهجاناة نفسها!!

تقرر أن تبدأ عملية الغزو في ساعات الفجر.. وفي ساعات المساء السابق كان ٧٢ من رجال إيتسل و٦٠ من رجال لحيى قد استكملوا جميع استعداداتهم، وتقرر أن تكون الساعة الرابعة والنصف صباحاً هي ساعة الصفر.

تقدمت القوتان نحو دير ياسين، وعندما أصبحتا على بعد حوالي ٤٠ متراً من منازلها الأول أحس الحراس العرب بحركة غريبة، وانطلق الرصاص، وبدأت المعركة.

وهنا يؤكد الكاتب، وذلك في سبيل أن يصور المذبحة قتالاً عنيفاً وجها لوجه، إن المهاجمين واجهوا «مقاومة عنيدة واضطررنا إلى محاربة العرب وجهاً لوجه».

لكنه يعترف بالحقيقة أو بعضها حين يكتب أن المهاجمين أسروا عدداً من النساء العربات وأجبروهن على نقل الجرحى مما أدى إلى إصابة عدد من هؤلاء النساء.

ويكتمل الاعتراف بعض الشيء حين يكتب: «اضطررنا إلى السيطرة على كل منزل على حدة بواسطة إلقاء القنابل إلى داخلة وإطلاق نيران الرشاشات. وهكذا قتلت أثناء المعركة عائلات عديدة بينها النساء والأولاد».

امتدت المعركة إلى ساعات الظهر.. ووصلت إلى الغزاة إمدادات من.. الهجاناة! وأخذوا ينسفون البيوت على أصحابها

بعبوات من التفجيرات يبلغ وزن الواحدة منها ٢٠كجم.. ويقول رعنان في وصف العملية: "على الأغلب، كان المنزل ينهدم على ساكنيه، وبين الأنقاض شاهدنا الجثث الممزقة".

بعد أن نسفوا ١٥ بيتاً، ضعفت المقاومة، وقرروا تقليص عمليات النسف «للتوفير في المتفجرات الغالية».. ومن ثم .. للكف عن إصابة النساء والأولاد»(!).

وسقطت منازل القرية في أيدي المحتلين.. وصمد هذا المنزل، ولم يتمكنوا من إخماد مقاومة المعتصمين فيه إلا بقذائف الهارون التي حملتها إليهم جماعة «بلماخ».

في الساعة الثانية عشرة ظهراً تم احتلال القرية كلها.. وهرع إلى المكان قائد الهجاناة شلتيئيل وطلب مقابلة رعنان.

وتم الاتفاق فيها بعد على أن تخرج قوتا إيتسلوليحى من القرية الأنقاض لتحتل مكانها قوة من الهجاناة.. وحين وصلت هذه القوة تكلم قائدها في رجاله:

«لقد أتينا لنأخذ هذا المكان من أيدي المنشقين «جماعة إيتسلوليحى» في عملية احتلال القرية أظهروا وجههم الحقيقي، وبرهنوا على أنهم قتلة بكل معنى الكلمة. لقد ألحقوا العار بالشعب اليهودي في البلاد وفي العالم».

وأصدرت الهجاناة منشوراً فيما بعد عبرت فيه عن «مساعر القرب والاشمئزاز من الطابع البربري الذي نفذت به هذه العلمية».

هذا ما أعلنه قادة الهجاناة على الملأ، لكن موقفهم الحقيقي يظهر بوضوح في المعلومات التي يعلنها كاتب المقال الذي يحاول الدفاع عن جماعة إيتسلوليحى وفي الوقت نفسه يؤكد اشتراك الهجاناة في العملية.

شاءت الهجاناة أن تستغل هذه العملية للدعاية لنفسها ومن الأمور التي فضحتها، قضية معاملة أسرى دير ياسين.. فقد قرر الغزاة أن يسوقوا الأسرى في شواره الأحياء اليهودية من القدس جرياً على عادة الرومان في «مواكب النصر».. مستهدفين إذلال الأسرى من جهة وإثارة المشاعر القومية العدوانية لدى جماهير المحرضين.

أكثر من ٢٥٠ من رجال ونساء وأطفال القرية ذبحوا في منازلهم.. ورفض القتلة دفنهم.

«كان ذلك النهار حاراً بشكل خاص.. ريح غريبة حملت نحو القدس رائحة الجثث المحروقة والموت. وانتشرت في المدينة شائعات عن مجزرة حلت بسكان دير ياسين».

«لا أشعر بأي أسف»

دير ياسين.. أبدا تتمرد على النسيان.. أبدا تنغل ذكراها نمالاً على الجرح المفتوح، توجع وتركز.. ومن حين لحين نعود فنسمع

شهادات أخرى من شهود آخرين.. وتبقى الحقيقة الأساسية: تعددت الشهادات والعار واحد!

في ٤ إبرايل ١٩٧٢ نشرت «يديعوت أحرونوت» مقابلة مع مردخاي رعنان «قائد وحدة الإيتسل في المجزرة»، ولخصت مجلة الغد تلك المقابلة التي كرر فيها رعنان اعترافاته:

«.. كل ربع ساعة تقريباً نسفنا بيتاً. ولم يكن عندنا فكرة عن الموجود في البيوت، لقد نظرنا إلى كل بيت وكأنه متراس معزز.

وعندما وصلنا أحد البيوت حذرنا الموجودين فيه بأننا سننسفه.. وهم إذ شاهدوا ما جرى لسكان البيوت السابقة خرجوا نحونا رافعين أيديهم.. كانوا تسعة بينهم امرأة وولد. الشاب الذي كان حاملاً «البرين» معنا كبس على الزناد حتى النهاية. وزخة الرصاص أصابت العرب.. إذ رأى سكان البيوت الباقية ما جرى.. رفضوا التسليم. فلم يبق أمامنا مناص. نسفنا البيوت على سكانها.. جمعنا «بعد انتهاء العملية» أهل القرية الذين لم يصابوا وقلنا لهم: بإمكانكم الاختيار.. إما الذهاب إلى عين كارم «قرية عربية من ضواحي القدس»، أو نأخذكم إلى بوابة مندلباوم «التي منها يصلون إلى القدس القديمة التي كانت تحت سيطرة الجيش الأدرني – الكاتب».

لكن قائد الليحى– زطلر– قال في نفس المقابلة «يديعوت ٤–٤–٧٢»: الذين بقوا أحياء في نهاية العملية.. حملناهم على سيارات شحن وبعثناهم إلى بوابة مندلباوم».

وأما شاهد العيان – مائير بعيل الجنيرال في الاحتياطي اليوم – فقال:«لقد أخرجوا خمسة وعشرين رجلاً من البيوت وحملهم في سيارة شحن وطافوا بهم «طوفة انتصار» في أحياء محنى يهودا وزخرون يوسف. وفي نهاية الجولة أحضروهم إلى محجر بين دير ياسين وجبعات شاؤول وقتلوهم بدم بارد. أما من بقي حياً من النساء فقد حملوهن في سيارة شحن وأخذوهن إلى بوابة مندلباوم».

هكذا تمت العملية "المجزرة" وأما مرتكبوها، فلا يشعرون حتى اليوم بأي أسف لما جرى، بل يفاخرون!! ففي المقابلة الآنفة الذكر «يديعوت أحرونوت ٤–٤–٧٢» قال أحدهم: «اليوم بعد أربع وعشرين سنة على العملية، لا أشعر بأي أسف على ما جرى»!

ويكمل.. «لقد أحدثت عملية دير ياسين انعطافاً في معارك ١٩٤٨. لقد أنزلت بالعرب خوفاً مميتاً، وحطمت معنوياتهم. وسهلت احتلال طبريا وحيفا وعشرات القرى العربية التي هرب أكثرية سكانها».

أما حصاد الدم في مجزرة دير ياسين فكان ٢٥٤ ضحية «باعتراف المصادر الإسرائيلية».

لا يشعر بأي أسف.. وإنه لشاهد آخر من أهله.

أما دير ياسين، فستبقى حية ناذفة، كما هي أبداً.

أبداً تتمرد على النسيان. أبداً تنغل ذكراها، نمالا عن الجرح المفتوح.. توجع وتكرز!

مدرسة للقتل

رجل أشعت، حاد النظرات، غدار، يخفي في ثيابه
خنجراً رهيباً، لا تكاد تدير ظهرك حتى ينقض عليك
بطعنة نجلاء، متخلف، فاسٍ، همجي، هوايته القتل،
سادي، قاتل أطفال، جبان، رعديد، كذاب، منافق،
قذر، فظ، ساخط، لئيم، حقود...إلخ.

هذا هو النموذج الذي سعت الدعاية الصهيونية، ولا تزال، لطرحه أمام العالم المتحضر، كنموذج للعربي.. فهو ليس جندياً وليس إنساناً.

«في عالم النفس، إننا أحياناً نحاول تطهير أنفسنا بواسطة تصريف عقدنا ودخائلنا وقذف الآخرين بها.. وأحيانا نفعل ذلك بقسوة وعنف، كأننا ندفع عن أنفسنا تهمة شديدة اللهجة، سواء كانت التهمة حقيقية أم وهمية، هذه الحالة النفسية هي التي تدفعنا إلى قتل طفل يذكرنا دائما بأبيه الذي قتلناه من قبل».

دخان الحرائق في خط بارليف ينتفض رعباً وحزناً.

الاشتباكات العسكرية والدعائية على أشدها.. إلى جانب حرب الصواريخ تدور حرب الوثائق.. وسائل الإعلام الإسرائيلية تقذف المصريين «بوثيقة» تزعم بها أن وزير الحربية المصري أصدر أمراً يومياً للجيش بوجوب وشرعية قتل اليهود حتى لو استسلموا.

شرقت الدعاية الإسرائيلية بهذه «الوثيقة» وغربت لتفضحنا بها بين الملأين الأعلى والأدنى.

ثم كان.. مجلة «هعولامهزية» الإسرائيلية الليبرالية، نشرت في ١٥-٥-٧٤ مقالاً- فضيحة يثبت أن القيادة الدينية «الرابانوت» للجيش الإسرائيلي أصدرت كراسا توجيهياً يحض الجنود الإسرائيليين على قتل الغوييم «غير اليهود» وقتل العرب عسكريين ومدنيين على السواء.. ولوجه الدقة، فإن الكراس يدعو إلى قتل المدنيين في حالة الاشتباه بأنهم قد يلحقون الضرر بالجيش الإسرائيلي في غزواته وهجماته.. أما هذا التحفظ الفضفاض فإنه بلغي كلية حين يؤكد الكراس السماوي الإلهي الديني أنه لا يمكن الثقة بالعربي أبداً أياً كان.. ونسبت المجلة إلى تلك الكراسة الرسمية الفقرات التالية:

١- حين تلتقي قواتنا بمدنيين، في حرب أو مطاردة، أو غزوة فإنه ما لم يكن هناك تقدير ملموس بأن هؤلاء المدنيين لا يستطيعون إلحاق الضرر بقواتنا، يصبح من المسموح به، بل من الواجب، حسب الشريعة، قتل هؤلاء المدنيين.

٢- لا يجوز في أية حال من الأحوال وضع الثقة في عربي، حتى ولو خلق انطباعاً بأنه متحضر.

٣- حكم الذي يساعد العدو أو المخرب هو حكم العدو أو المخرب نفسه.

الغريب في الأمر، أن هذه «الكراسة الدينية» بدأن بهذه العبارة الغريبة:

«إن الجيش الإسرائيلي معروف ومشهورة بأنه جيش يثقف جنوده على المحافظة الدقيقة، وعلى ظاهرة السلاح».

لا بأس – فمن خلال التجربة والممارسة الطويلتين أصبح واضحاً لنا تماماً أن «طهارة السلاح» في عرف قادة إسرائيل هو شيء مختلف تماماً بل متناقض تماماً ما تعارف عليه العالم المتمدن والبشرية المتحضرة.

وكالعادة، وليؤكد واضح هذه التعاليم صحة تعاليمه، فإنه يقفز آلاف السنين إلى الوراء، غائصاً في أعماق التوراة وفهارسها وحواشيها ليعود بالحجة الدامغة المخرسة. لقد قام السلف الصالح: «طوف شبغوييمهروغ».. أي «الجيد بين الأغيار هو القتيل».

غير أن واضح هذه التعاليم هو رجل علم ولا ريب، وهو بعيد النظر ثاقب البصيرة، لذلك فهو يقول بضرورة الامتناع عن قتل المدنيين في حالة معينة: حين يكون قتل المدنيين مسيئاً للهدف السياسي مع الغزوة أو العملية العسكرية الإسرائيلية.. والبركة في أهداف حكام إسرائيل السياسية، والبركة في وحوش الغاب.

لقد سئل الرابي الأكبر للجيش الإسرائيلي، الرابي بيرون، حول هذه الكراسة وجاء جوابه تأكيداً على أن الدراسة التوراتية لابد

أن تشمل مثل هذه الأمور، غير أن إيرادها اليوم لا يعني- على حد زعم الرابي الأكبر بيرون- الدعوة إلى تطبيقها، بل هي مسألة دراسية علمية لا غير.. وما شاء الله يا علم!

ليس سراً على أحد، أو لم يعد سرار على أحد، أن «التوجيه المعنوي» في إسرائيل قائم في الأساس على أخلاقيات ومفاهيم تبعد قروناً عديدة عن عصرنا الحديث.. هذه الحقيقة تعذبني شخصياً، لا كعربي يواجهها مباشرة، فحسب، بل كإنسان متحضر يعيش في عام ١٩٧٤ بعد الميلاد.

ثم كان.. نشرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» في ٢٢-٥-٧٤ نبأ يقول: إن ثلاثة جنود متدينين من القيادة الدينية في منطقة تل أبيب جرموا بإغواء فتاة قاصر، وصدرت ضدهم أحكام قضائية.

شعراء ودبلوماسيون

قبل ست سنوات، بقدر ما تسعفني الذاكرة، كتبت في «الاتحاد» مقالاً تحت عنوان «شعراء لا دبلوماسيون» ناقشت فيه فكرة إسهام الشعراء في العمل السياسي اليومي وأعلنت رفضها بعنف وحماس شديدين.. ومنذ ذلك الوقت أوصلتني التجارب إلى عكس ما ذهبت إليه آنذاك، وأصبح واضحاً لي أن الشاعر الملتزم، لا سيما العربي الذي يعيش في إسرائيل بالذات، لا يستطيع صرف النظر عما يدور حوله، ولصق جلده وأعصابه، وبالتالي، فإنه لا يستطيع إلا أن يكون شاعراً و«دبلوماسياً» في الوقت نفسه.. يكتب قصيدته، ويخرج إلى خصومه مدافعاً عن كلمته، داعياً لما ترفعه من مضمون، ومؤرثاً ما تختزنه من حرارة.. باختصار: لا تستطيع أن تقول كلمتك وتمشي.. ينبغي أن تصحبها إلى حيث تطمئن إلى أنها لم تكن بذرة على صخرة.

بدءا من هنا، أدركنا أهمية اللقاءات والندوات التي تعقد من حين لآخر بين الأدباء والمفكرين العرب وزملائهم اليهود.. بتعبير آخر، عرفنا أهمية «الدبلوماسية الأدبية»!

بعد نكبة ١٩٤٨ لم ينتهج حكام إسرائيل سياسة الجسور المفتوحة، بل كانت لديهم آنذاك سياسة البحر المفتوح باتجاه

واحد.. لكنهم سواء في النكبة أن النكسة انتظروا اللحظة المناسبة لإسدال الستار الحديدي بين العرب المقيمين وراء الدبابات والعرب المقيمين في مواجهتها.. وفي الوقت نفسه سدلوا ستاراً جديداً آخر بين العرب المقيمين وجيرانهم اليهود، بينما راحت أبواقهم وصحفهم تحقن جماهير اليهود بسموم العنصرية والعسكرية، باذلين أقصى جهودهم لمنع بقية شعبنا في الوطن من إجراء حوار متكافئ ومنطقي مع السكان اليهود، ولعلهم أرادوا بذلك الحول دون إمكانية إبطال مفعول التحريض الصهيوني، وجلت الحقيقة بكل تفاصيلها التاريخية والإنسانية والسياسية.. ومن هنا، فإننا لا نعجب من الهجمات العنيفة التي يشنها غلاة المتطرفين الصهيونيين على لقاءات معينة ومحدودة مع الجمهور اليهودي.. ولا ندهش للتهديد بالقتل الذي سمعناه أكثر من مرة في ندوات تل أبيب وحيفا وغيرهما.

ولا نزعم أننا نجحنا في نسف الستارين الحديديين، لكننا فتحنا أكثر من ثغرة، حركنا أكثر من ضمير، أسرنا أكثر من دماغ، وجندنا أكثر من قلم.

في الوقت نفسه تواصل أجهزة الإعلام الرسمية التشويش علينا وتزييف مواقفنا. وعلى سبيل المثال، منذ أسابيع جرى نقاش بيني وبين إيسر هرئيل رئيس الشين بيت السابق، في ندوة محرري الصحف، في تل أبيب، تلك الندوة التي تبطخ فيها سياسة الإعلام. وبهدف إحراجي، سألني: ما موقفك من إلقاء القنبلة على سيارة

فولكسفاجن في غزة وقتل ولدين يهوديين؟ قلت له: غزة مدينة محتلة وليست مدينة سياحية، اخرجوا من غزة ولن يقتل فيها أي ولد يهودي أو عربي، الاحتلال هو المسئول.

بعد أيام جرى نقاش بيني وبين روت ديان، رئيسة منظمة جديدة تدعى، "حلف أبناء سام"– وهي بالمناسبة، زوجة وزير الدفاع– وفجأة قذفتني بقولها: أنت أعلنت في تل أبيب تأييدك لقتل الأولاد اليهود»!

وهكذا، فإنهم، فوق أنظمة الطوارئ المفروضة علينا لتجميد نشاطاتنا وتقييد حرياتنا يعملون على تشويه مواقفنا وتزييف أقوالنا.. لكننا لن نقول كلمتنا ونمشي.. سنسير معها حتى تستقر حيث نريد..

حين أحسوا بأهمية لقاءاتنا هذه، سعوا إلى ضربنا من الداخل.. وذلك بمحاولة «الموازنة» في تركيب الوفود العربية إلى هذه اللقاءات.. «والموازنة»– في نظرهم– تعني دس بعض الكتاب والشعراء العرب العاملين في المؤسسات الحكومية أو الذين لا تسمح لهم ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية بإعلان آرائهم جهاراً، في صفوف المناقضين العرب لخلق البلبلة بينهم أمام الجمهور اليهودي.. لكن هذه المحاولة منيت بفشل ذريع، فحتى هؤلاء الذين ظنوهم في "الجيب"، تكلموا بجرأة كبيرة ولعلهم كانوا أكثر «قسوة» منا في أكثر من مناسبة!

مرة أخرى «شعراء ودبلوماسيون».. ننقل للشعب الآخر هموم شعبنا وتشوفاته.. وتعود إلى مناطقنا المغلقة عبر الستار الحديدي لنحدث شعبنا بما يقوله الآخرون.

قد تبدو هذه المهمة سهلة على السطح، بيد أنها في حقيقتها شاقة مرهقة، تتطلب منك أحياناً أن تضع أعصابك في ثلاجة، وقد تضطر أحياناً إلى إغلاق الغرفة عليك، لتصرخ وتصرخ.. حتى لا تجن!

«الجديد» ١٩٧١

بلادي- تاريخ روحي

«عصر الجليد»

في البلد كنت أنت وأما بعد فالكلمات/ هكذا يقال أيضاً إنك الأصل/ منك يبدأ سواك جزءاً جزءاً/ الكلي أيضا يعود إليك/ وأنت البدء والأصل/ أما أنا فالامتداد السعيد لأنك اخترته/ مبارك القلب الذي جعلت له عقلاً/ المجد للعقل الذي أنعمت عليه بقلبك/ أومن وأشهد أنك أنت البداية/ أبداً منك ولا أنتهي.

كل كتبك تحمل اسمي كلمة أولى/ وها أنذا ألج عتبة نورك فلتتقدس بك الكلمة الثانية/ ولتتقدس كلمتك الخالدة وما من كلمة أخيرة بين أزلي وأبدك.

أيتها المرأة الرجل/ أيتها الشجرة الموجة/ أيتها الرملة المناخ/ تتجانس فيك المتناقضات وشد ما تناقضت عناصرك/ بل الجليد بكثير وبعد جز النواصي واللمم/ أخيت الزمن وكنت أبدا غزالة التاريخ النافرة، أسميك إلهامي وخبزي أسميك وردتي وكآبتي. وأدعوك الشهوة جهارا/ يا التي في حالة السهل وفي حالة الجبل تحتفظين بجلالك. يا التي يمسح كبرياؤك صور الملوك والقياصرة وأمجاد الأكاسرة والمغامرين.

يا التي تجرين ذيل طيلسانك على الأضرحة والقصائد وعلم الآثار كيف أسميك مرة أخرى؟

أغنية مسمارية على ألواح الأجر/ ذلك هو ظلك القديم وقبل الجليد وقبل الماء والنار والتراب وقبل الهواء بكثير/ أيتها السيدة الأم أينها العذراء الغلام، كيف أسميك مرة أخرى؟

قصارى جرأتي أن أحبك/ وأن أمقتك غاية طموحي/ لا تنظري إلى/ لا تنعطفي عن مدارك المخيف لا تتنازلي عن عصانك.

أكونك كما تشائين/ تكونينني كما أشاء/ سيان عندك السخط والرضا/ سيان عندي النور والظلام لأنك الأصل/ لأنك الأولى والثانية والأبدية.

منذ فجر التاريخ تعشقك الحواة والسحرة، كنت نطفتك وحدك تعلميني أي إله كان أبي.

اصغى قليلاً أيتها القديسة الفاسقة، أصغى قيلاً لتسمعي هدير دمك في عروق جسدي اصغى قليلاً ولا تنظري إلى/ لا تعتذري عن خيولك الجامحة.

حليب نهديك على شفتي/ بدني في أحشائك وإنني لأرتعش عبادة وضلالا/ وكم بكيتك جثة مغتصبة على قارعة السبيل/ خانا للغزاة/ مقبرة للأنبياء والصديقين/ كم بكيتك إناء خزفياً مشهوماً تحت سنابك الخيل/ قنطرة عالية في الليل والمطر/ مدخنة ولادخان حقلاً ولا سنابل/ بيتاً ولا أهل/ شجرة ولا ثمر/ كم بكيتك وكم

رقصت غبطة بين يديك مطلقاً ذراعي في زوابع بخورك/ عارياً سائباً في قطيفة سمائك/ كم صليت أغنياتي الجارحة محرجاً حساسينك/ كم حدجت نسورك من علياء فرحي/ مبايعاً دهشتي هاتفاً بكل جوارحي: سمعا وطاعة.

أنت الأصل/ عندك يبدأ كل شيء وما من نهاية.

أحبك بلا يقين لأن لغاتك كثيرة/ أحبك فماذا أفعل بلغتي الوحيدة هذه أيتها الطفلة اللعوب/ إيه أيتها النبيهة الفاجرة/ أيتها العجوز الشمطاء الفاتنة إلى الأبد/ أنا ذا أشيب وأحبك/ تداهمني العلل وأحبك/ تتساقط أوراق روحي وأحبك/ أمقتك وأحبك/ أحبك وأحبك في البدء كنت/ وفي الختام/ يمامة من صبوات/ لا عجة للحجر وياقوته للتاج/ حملك الجبابرة على صهوات جيادهم وتناثروا شراراً تحت قدميك.

الزينات والشعائر كلها لك، والناووس أنت، أم حنوطه؟ يا شجرة العائلة/ ما أطيب حسرات مريدك/ ما أسيب ثمراتك.

قولي حتى أكون فما لك/ واصمتي حتى التقط أنفاسي/ وليكن النهر والكثيب شاهدي زواجنا.

عصور- هنيهة تنزلق عن خاصرتك وتواصلين السير بخطي إلهية على سجادة العشق، حيث اصطف صرعاك ميمنة للحكمة وميسرة للجنون.

شتاء على القلب فلتهدر العاصفة وليتحلق الأطفال الموعودون بحكاياتك الخارقة أيتها الجدة الطيبة/ ولينتشر دفء يديك أملاً للتعساء وخبزا للمساكين اليتامى.

ربيع في الذاكرة/ تتقمصك الفراشات/ ترتعش الورود في عظام الموتى وفي مسام الزمن/ ولينفجر العبق الترابي في أرواح معاميدك.

صيف على الأكتاف/ وإنني لأنوء بأثقال شهواتك يا امرأة البساتين يا مليكة النحل الأبدية.

خريف في الروح/ فانظريني/ خذي بيدي قليلاً/ أرجئي سخطك وافتحي نافذة واحدة على متاهات جرحى الشاسع هذا/ خريف في الروح وكم أفتقدك.

سابرأ من جذامي/ سأنطق على ركام دهورى البكماء/ لو لمست قلبي فقد بسريرة أقداسك سابراً وسأنطق.

أنا ذا أهبط سفح الجبل، ذاهلاً عن تحرشات القندول، متسامحاً مع البلان الساذج، لأنك هناك، برقوقة وحيدة تنظف دما لاذعاً على خرائط الكون وقواميس اللغات.

أقول أحبط وأخجل/ ماذا لديّ لأعطيك أيتها المانحة المانعة/ هباتك قناديل وما أشد حلكة ليلى حين تحبسين نعماءك.

أقول أحبك وأتهاوى: ما أعظم خطيئتي! ما أمر كفري! ما أقسى جحودي!

أقلب صفحاتك وأقرأ الغابات العملاقة. قرا في شغف جارف/ وقبل تهويمة الإعياء بكثير تأتيني جلبة الوحوش الراكضة في جنون الخوف نحو الآفاق المسدودة بالبراكين والهزات الأرضية المتعاقبة/ ها أنا ذا أرى إلى قطعان الآيل المتهاوية من حافة الجرف المفاجئ/ ها أنا ذا أسمع زئير الأسود الساقطة في فضاء الطبيعية الساخطة/ ولتنهمر دموعي ودموع ذراري على جبال الجليد المتلاشية أمام البصر الزاحفة على أطرافك نحو أعماق المحيطات المجهولة/ وداعاً أيتها الغابات الغائصة في أغوار الأرض وداعاً أيتها الطيور والأفاعي وداعاً يا ذئاب السهوب ويا بنات آوى المصعوقة بالرعب/ وداعاً أيتها الفيلة والسلاحف/ ودعاً يا صخب الأدغال المفعم نضرة أيها المزهو بالألوان أيها المتكبر بهدير أنهارك.

وداعاً يا خضرة النعناع البري/ مرحباً أيتها الصحراء/ مرحباً أيها الربع الممتلئ الخالي/ مرحباً أيها الكل الذهبي/ أيها الذهب/ أيها العسل مرحباً أيتها الصبية البدوية السمراء.

في لحظة الكشف أكون عرافك/ أنثر نجومك على قطيفة السماء/ ينبلج نور الحق والهداية وأصيح في بهرة الوحد: ويل لي كم أحبك..!

اليوم السابع/٨٥

«نعم للجوع لا للركوع»





لاصة القلب وغاية السلام الروحي، تتجمع في هذه الصرخة الواضحة كالدم، المباشرة كالوطن، والصادقة كالإنسان الإنسان.

«نعم للجوع.. لا للركوع».

نداء الإيمان حتى الشهادة.. وأذان الشهادة حتى النصر.

«نعم للجوع.. لا للركوع».

صيحة سجناء الثورة وعرسان الحرية في معسكرات الاعتقال الإسرائيلية، أخواتنا، لحمنا ودمنا وشرفنا، الذين لم يفقدوا كبرهم وكبرياءهم في أشد حالات الإذلال والمهانة، فسخروا من السجن وهزئوا بالسجان.

وجدوا في كآبة الجراح منفذاً للدعابة فأطلقوا على سجن كفار يونا اسم الدلع الرشيق «باستيل كفار يونا».

وكما جرت العادة من بدء الخليفة، فإن شموخ الضحية يثير جنون الجلاء ويدفعه إلى مزيد من العنف.. وقد تنحى الضحية فتسقط إلى الأبد جسدياً ومعنوياً.. وقد تتصدى لمزيد من العنف بمزيد من العنفوان فتعبر مطهرها الخاص إلى فردوس هو جدير بها بقدر ما هي جديرة به.

إنها لعبة عض الأصابع.. تعض أصبعي فأعض أصبعك، وويل للذي يصرخ أولاً.

إنـه الالتحـاق الكامـل، حـرب الشـوارع الحقيقيـة بـين الفكـر ونقيضتها وبين الموقف ونقيضه.

ويقـف سـجناء شـعبنا فـي معسـكرات الاعتقـال الإسـرائيلية.. يقفون للأذى والمذلـة.. يقفون للهراوات والغازات السـامة.. يقفون للنوافذ المعدنية المنصوبة في وجه الشمس، شمس الوطن وهوائه.

ويكابر السجان مدارياً جبنه وضعفه بقناع من الجبروت المهزوز والقوة المتهافتة على فجاجتها وركاكتها وانسحاق ثقتها بنفسها.

إذن فليكن الإضراب.

وليكن إضراباً عن الطعام، وليكن إضراباً مفتوحاً.

وتدوى الصيحة: «نعم للجوع.. لا للركوع»

تلطـم علـى جـدران «باسـتيل كفـار يونـا» فتصـدى علـى جـدران الـدامون، وتدمـدم علـى أسـوار الخليـل ارتـداداً إلـى جنيـد، وتتـدفق لتصـعد مـن جديـد عبـر قضـبان معتقـل نفحـة الصـحراوي وأسـلاكه الشائكة الدامية!

«نعم للجوع.. لا للركوع» وتتحقق «الوحدة الفلسطينية».

ويتجسد «التضامن العربي» في عتمات المعتقلات الصهيونية.

ماذا هنا؟ ومن هناك؟

هـل حجـب الله تعـالى نعمـة السـمع ونقمتـه عـن أمـة بأسـرها وخصنا نحن بها دون سوانا من العرب أو الناطقين بالعربية؟

«نعم للجوع.. لا للركوع»

هل يسمع الواطئون والمتواطئون؟

هل يسمع «ذوو الشأن» القاعدون في «دست الحكم» الممسكون بعدة الحل والربط وعديد العسس ورصيد النفط؟

هل يسمعون زغرودة الولادة في أقبية الموت أو إنهم لا يسمعون سوى خفق المقاعد الوثيرة تحت أقفيتهم الوفيرة؟

بيد أن الوطن سئم موته البطيء على يد حاكم اكتفى كما يبدو بملك لا يفيض عن عرشه، وعرش لا يفيض عن قفاه.

«نعم للجوع.. لا للركوع»

نحن معكم يا فرسان الوطن وعرسان الحرية.. إلا إنكم الأحرار ونحن السجناء.

«نعم للجوع.. لا للركوع»

«الاتحاد» ١٠/١٠/١٩٨٦

خيانة البطولة.. بطولة الخيانة

خارج الرأي العام، خارج قاعات المحاكم والملفات، بكل العالم وبمعزل عنه، يجلس المرء في نفسه وحيداً ساخطاً، يبحث عن وجه للبركة فتجحظ من حوله اللعنات ويحتشد الظلام ملء البؤبؤين، بتسلل إلى الشبكية، إلى الدماغ ويتفجر في القلب.

إنه الاختلاط الباهظ في المفاهيم، تبادل الأدوار المسف، الاحتلال الكامل في الأعراف وسقوط المقولات تباعاً، إنه الحزن الناجز عارياً واضحاً، مفهوماً وغير مفهوم.

مسائل شتى تقبل وتمضي، يندلق كثير من الحبر وكثير من الدم، فينتصر «السكوب» الصحفي، وينشر الإعلام. تتكرس المعلومة، أما الإنسان موضوع هذه المعلومة وغايتها فينقذف بقوة صاروخية إلى مكان ما من هذه الأرض مسحوقاً مثل عقب سيجارة أو محتقنا مثل بالون عائم في الفضاء.

أما أنت، الشخص، مواطن العالم المنفي عن العالم، فلا يبقى لك سوى هذا الجلوس الكئيب في نفسك الكئيبة وحيداً ساخطاً على شفير البكاء.

قلت، مسائل شتى تقبل وتمضي، تشحن الناس بالإثارة وتنطفئ مع رنين التليفون، مع نداء ما، مع صوت ما، ويعود كل شيء إلى مجراه.

ومن المسائل التي أقبلت ومضت واحدة لا تفكي من مطاردتي رغم أنها أصبحت «خبراً قديماً» وفق المقاييس الإعلامية. ولهذه المسألة اسمان: «شرانسكى» و«فعونو».

شيرانسكى

مواطن سوفييتي. قصير القامة، وغير ذلك لا يبقى من ملامحه ما يلفت النظر. سمع إذاعات «العالم الحر» ووصلته الدعاية الصهيونية سراً وعلناً فقرر إعلان الحرب على الاتحاد السوفييتي – وطنه، وقد وصل أخيراً إلى بلادنا من أجل ترحيل أكرم هنية. وأصبح شيرانسكى بطلاً قومياً في إسرائيل وقابله زعماء «العالم الحر» من ريجن حتى تاتشر حتى كل موظف في أي قلم استخبارات يضمر الشر للعدالة والاشتراكية والسلام، لا لشيء إلا لأن مخصصاته الشهرية تتناقض مع العدالة والاشتراكية والسلام.

وأصبح شيرانسكى شخصية دولية هامة. ونجماً تليفزيونياً ومعلقاً سياسياً يقرأ في المؤتمرات الصحفية تصريحات مكتوبة ويستطيع الارتجال أيضاً. إنه بطل قومي فقد ألحق الضرر بالاتحاد السوفييتي!!

فعنونو:

مواطن إسرائيلي معتدل القامة، يميل إلى الطول، وغير ذلك لا يبقى من ملامحه ما يلفت النظر. عمل خبيراً في مفاعل ديمونا النووي أدرك أن إسرائيل تنتج سلاحاً نووياً. وبحس إنساني بسيط، تملكه القلق. ولعله فكر أثناء العمل: لماذا هذا السلاح النووي، الضرب العرب؟ لكن العرب قد يمتلكون هم أيضاً سلاحاً نووياً وقد يضربوننا، فماذا ستكون المحصلة؟ دماراً هنا؟ دماراً هناك؟ هل خسارة العرب هي بالضرورة فائدة لليهود؟ هل سيخسر العرب وحدهم؟ ألا تكفي اليهود خساراتهم السابقة؟

وفي دوامة القلق هذه يبحث فعنونو عن متنفس لمخاوفه... ولأنه لا يتجاوز قيمة البرغي الصغير في آلة هائلة فلا يجد أمامه سوى الخروج إلى العالم الكبير، هناك يهمس وهناك يصرخ، مؤمناً إنه بتحركه الضئيل هذا يفعل شيئاً من أجل السلام شيئاً ما. لا لصالح العرب بل لصالح اليهود أولاً وقبل كل شيء.

برغم صغير يتمرد على آلته. أهي البطولة أم أنه الجنون؟ أهي البطولة أم أنها الخيانة؟ خيانة ماذا؟ خيانة من؟ ما هي البطولة؟ ما هي الخيانة؟

فعنونو– مردخاى فعنونو، هو اليوم سجين رهن المحاكمة في إسرائيل بتهمة الخيانة العظمى! إنه أسر آلته وهو أسير قلقه. إلا أنه سجين لدى نظام «ديمقراطي». يصف المحامي أوضاع موكله اليوم:

"يجلس ٢٢ ساعة يومياً بين أربعة جدران. أصدقاؤه الوحيدون هم الصراصير وحشرات الزنزانة. مرة كل أسبوعين يسمحون لأبناء أسرته بالزيارة، وحينذاك أيضاً يقف إلى جانبه سجان بيد ممدودة، حتى يغلق له فمه وقت الضرورة، لا كتب عنده ولا تجوز له قراءة الصحف".

عشنا هذه التجربة. عشناها على جلودنا وأعصابنا. مضغتنا هذه الدوامة ومضغناها. تساءلنا ونتساءل: أين تقع البطولة؟ أين تقع الخيانة؟ أخ.. يا جغرافيا الروح الضائعة.

«الاتحاد» ١٩٨٧/١/٢٣

تصبحون على قلق

هناك شعوب بأكملها تكابد أمراض سوء التغذية ولسنا
مطالبين بأية شهادات في علم الطب لمعرفة السبب،
ومعلوماتنا الطبية المشبوهة تدعى بأن النقص في
الفيتامينات هو السبب «أرجو الأطباء ألا تيدخلوا».

نحن العرب لا خوف علينا من أمراض سوء التغذية، صحيح أننا لا نأكل ما نزرع، بيد أننا نأكل ما نشتهي، فالبترودولار هو مصباح علاء الدين العصري، نأمره فيطيع ويشتري ويبيع. أما المرض الخطير الذي يهدد صحتنا فهو مرض النسيان، والسبب قدرة هائلة على النوم العميق ونقص هام في فيتامين القلق، ينتبه أحدنا إلى خطر داهم، فينفخ في الصور ويتبع النفير بالنفير، ونحن نغرق في النوم ونطنب بالشخير.

وتذكرني قدرتنا على النوم العميق بتلك الطرفة:

أحدهم: أنا مدين بمليون جنيه.

صديقه: مليون جنيه؟ وكيف لا تقلق؟ كيف تستطيع النوم؟

أحدهم: أنا أنام الليل الطويل، أما الذين يجب أن يقلقوا فهم الدائنون!

طرفة لا بأس بها، لكنها في حدود الطرفة، أما حين يحين الجد فلا نستطيع التسليم بهذا المنطق، ولجعل التحفظ أكثر ملموسية فإنني أقترح أن نتصور معاً مثل هذا الحوار.

أحدهم: نحن تحت الاحتلال الأجنبي.

صديقه: ألست قلقاً لذلك؟

أحدهم: ولماذا أقلق أنا، ليقلق الاحتلال الأجنبي.

وليس صدفة أنني أنتخب الاحتلال لهذه الطرفة المغرقة في سوادها وسوداويتها، فكثيراً ما أتساءل- ضد التاريخ: ماذا لو لم يأخذنا النوم في أحضانه الشاسعة يوم حذر من حذر وأنذر من أنذر، إلا أننا اكتفينا بالجنرال خالد بن الوليد واللواء طارق بن زياد والمشير عبد الرحمن الداخل قيادة لجيوشنا الهلامية في خنادق الأوهام ومطارات الخدر وقواعد الغيبوبة ماذا لو؟ ماذا لو؟

ويوم كان الحوار في العالم العربي محتدماً حول شكل تدمير «إسرائيل» وتصفيتها، بحراً أو جواً أو براً، والجماهير على الأكثر والأقل- مؤمنة بعلمانية هذا الحوار وحكمته.. كان القادة الإسرائيليون يتحاورون «سراً وعلى غاية السرية» حول مجالات التوسع الإسرائيلي والأولويات الإستراتيجية لهذا التوسع.

ومن خلال معلومة نشرتها جريدة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية «٨٨/٧/٣» عبر رسالة من الجنيرال رحبعام زئيفي «زعيم حركة الترانسفير التي تدعو إلى ترحيل الفلسطينيين، خارج وطنهم» نكتشف أن الجنيرال- الوزير إسحق رابين كان يثقف جنوده وضباطه في أواسط الخمسينيات على الأهمية الإستراتيجية الكامنة في الضفة

الغربية وعلى ضرورة الهجوم الذي يكفل الاحتلال السريع «يظهر ويتضح أيضاً أن اربين حدث عسكره عن المخططات الجاهزة في مقر قيادة يغال ألون «صديق العرب» لاحتلال الضفة الغربية برمتها».

هل حدث في العالم العربي منذ ذلك الوقت ما يدفع القادة الإسرائيليين إلى النكوص عن مشاريعهم ومخططاتهم التوسعية؟

لست بحاجة إلى من يحدثني عن الانتفاضة، فأنا أسأل عن العمق الإستراتيجي للانتفاضة، عن العالم العربي الشاسع بملايينه الطيبة والمجيدة.

وحين يتصاعد الحوار حول المؤتمر الدولي وقرارات هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن والمفاوضات المباشرة والمنظمة الدولية وهلم جوا. هل تطرأ لأحد منا فكرة التساؤل عما يعده القادة الإسرائيليون من مفاجآت غير واردة في الحسبان؟

أو أننا نكتفي بالدعاء على الاحتلال بالقلق؟
هل نعستم؟ أنتم ذاهبون إلى أسرتكم؟
لا بأس أيها الإخوة الأحباء.. أحلاماً سعيدة.
ناموا.. ولكن تصبحون على قلق

«صوت البلاد» العدد ١٥٩

ضد العالم



مادام أفلح الإعلام الصهيوني في تجنيد الرأي العام اليهودي وراء شعارات لا علاقة لها بالواقع. وأكثر من ذلك فإنه يبدو لنا أن هذا الإعلام يحتفظ بحملة من الشعارات في أرشيفه الخاص، يمتشقها في الظرف المناسب للإيغال في عملية التضليل التاريخية المستمرة، والتي ألحقت الأذى باليهود أنفسهم، وقدمت يد العون- من حيث لا تقصد، طبعاً- إلا «الإساميين» أنفسهم.

وعلى سبيل المثال، فإن شعار «العالم ضدنا» هو من قبيل الافتراض المرضي، ولا تتوفر له على أرض الواقع أيه براهين أو أدلة قاطعة.

لم يكن «العالم كله» في أي يوم من الأيام «ضد اليهود»، وإذا نحن استنجدنا بتاريخ اليهود منذ التوراة وحتى يومنا هذا فسنكتشف مدى التجني «العنصري» الذي ينطوي عليه هذا الشعار، ومدى تجاهل الحقائق الذي يبلغ درجة نكران الجميل، أيضاً.

حين احتل اليهود أرض كنعان، هل كان العالم كله ضدهم؟ وحين أقاموا عصرهم الذهبي في الأندلس العربية المسلمة، هل كان العالم كله ضدهم؟

وحين أقاموا دولتهم على أرض فلسطين مرة أخرى، هل كان العالم كله ضدهم؟

وحتى حين تعرضوا لجرائم النازية في ألمانيا الهتلرية، فهل كان العالم كله ضدهم.

وحين أصبحوا قوة اقتصادية وإعلامية في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، في مختلف أقطار الأرض، فهل يعني ذلك أن «العالم كله ضدهم»؟ وإذا كان «العالم كله ضدهم» فهل كان من الممكن أن يمارس حكم إسرائيل اليوم ما يمارسونه من سياسات «ضد العالم»؟

لنأخذ القضية الأخيرة، قضية الهجرة والاستيطان، نموذجاً على ما نقوله.

العالم كله، بشرائعه وقوانينه الدولية، وأطره ومؤسساته يطالب إسرائيل بألا تقضي على فرصة السلام الأخيرة بتحويل ما ظل للعرب من فلسطين «الضفة الغربية وقطاع غزة» إلى ميدان لتحقيق شهوات التوسع والاستيطان الكولونيالي.

ويقف ميخائيل جورباتشوف معلناً في الولايات المتحدة «عقر دار إسرائيل»، إنه يعارض الهجرة إذا كانت ستتحول إلى استيطان معاد للسلام وللحق وللعدالة في أبسط معانيها. فكيف يرد عليه

السيد إسحق شمير: «لن نقيم في هذه البلاد غيتوات وحدود استيطان للقادمين الجدد».

إنه يعني بوضوح رغبة السيد شمير في تكريس احتلال أراضي الغير. وحين يعارض العالم ويصر شمير فذلك لا يعني بالعقلية الشميرية أن إسرائيل متمثلة في حكوماتها تقف ضد العالم، بل العكس. فعلى العالم أن يقبل بالاحتلال والنهب والظلم والقتل ما دامت هذه الأمور مبررة لدى السيد شمير وصحبه.

وإلى أين يمكن لهذا المنطق أن يؤدي؟ إن الحالة الوحيدة التي يحق لنا تصورها هي حالة التناقض بين الشرائع والمواثيق والمفاهيم الدولية وبين كل ما ينفيها لدى حكام إسرائيل، ليعودوا، من ثم، إلى تكرار الشعار البائس إياه: «كل العالم ضدنا».

وليست هذه الحالة أمراً لا مرد له. والموقف الأخير منوط بلا ريب بتطورات الوضع السياسي والاجتماعي داخل المجتمع الإسرائيلي، ونحن في غمرة العمل، ولن نكف أبداً عن أملنا وعملنا في سبيل انتصار العقل والحكمة والمنطق في إسرائيل أيضاً.

نحن لا نؤمن بأن «كل العالم ضد اليهود».. ولا نريد لحكان إسرائيل أن يظلوا «ضد العالم».

«العربي» ١٩٩٠/٦/١٥



حرية الرأي.. والذين لا يعرفون البخور



صحيح أن المثل ما خلى شيئاً إلا وقاله. ومن الأمثال الأكثر حكمة وعقلانية، ذلك القائل: «إن الذي لا يعرف البخور تحترق أذياله».
وخلاصة المثل أن الذي يجهل الشيء يسيء استعماله.

وقياساً عليه فإن من ولد في القمع ورضع حليب القمع وتربى على القمع وتعلم بالقمع وتزوج وأنجب وشاب شعره بالقمع، قد لا يحسن استعمال حرية الرأي، رغم كونه أشد الناس حاجة إليها.

وتحت غطاء كثيف من دخان «حرية الرأي» تقئ الصحافة المحلية، الراقية منها والمتوسطة والمنحطة على السواء، من حيت لآخر، كثيراً أو قليلاً من البذاءات الغوغائية الساقطة.

والعجيب في الأمر أن عملية الكذب وتزوير التاريخ وقلب الحقائق بحيث يبدو الجبان شجاعاً والجاسوس بطلاً والخائن شريفاً والكلب أسداً، تتم بهدوء وبانسيابية تستحي منها الوقاحة نفسها، علماً بأن الحديث غالباً ما يجرى عن مرحلة لم يتغرب شبانها ولم يمت شيوخها.

وعلى سبيل المثال فإن شخصاً كان ينكر معارفه ويتنكر لأصدقائه، خوفاً من الحكم العسكري، أو حرصاً على وظيفة، أو طموحاً إلى مكسب شخصي، لا يتردد اليوم في الظهور بمظهر

الوطني النقي الشريف الشجاع، تحت سمع هؤلاء المعارف وأولئك الأصدقاء وبصرهم.

وحين تلفت نظر صحيفة ما إلى الإسفاف والكذب والتزوير وسائر الموبقات التي يمارسها هؤلاء الجبناء الرعاديد والمرتزقة الصناديد على صفحاتها فإنها تجيب ببساطة: «حرية الرأي يا أخي.. حرية الرأي»، حتى لكأن حرية الرأي تشمل ما إفرازات البشر وأشباه البشر من عقد نفسانية بدءاً بعقدة الشعور بالنقص مروراً بعقدة المطاردة انتهاء بعقدة الفصام التي لا شفاء منها.

يقينا بأن بعض السقطات الصحفية أو السخيفة تتم بسذاجة أو ببراءة. لكن بعضها الآخر لا يحدث عفوا الخاطر، بل هو جزء من مخطط مدروس يقف وراءه علماء نفس جهابذة، تتطلب منهم وظيفتهم المدفوعة الأجر عدا ونقداً، أن يشيعوا في مجتمعنا مناخاً من البلبلة وخلط الأوراق وطمس الحقائق، بحيث يتمكن العملاء والجواسيس المحترفون من التسلل إلى صفوف هذا الشعب الصابر المرابط على تراب آبائه وأجداده، والمناضل حتى النزيف من أجل مستقبل أفضل له ولأجياله القادمة.

ومهما يكن من أمر هذا التسيب الغوغائي، المبرمج أو الارتجالي، فإن الشعب لم يفقد القدرة على التمييز بين الأصالة المجربة وبين التهريج العابر.

وكما قبل، فلن يظل في الوادي غير حجارته، ولن يصمد في الميدان غير خيوله الأصيلة، أما البهائم المسرجة «بحرية الرأي» المفتعلة، فإن مجالها قصير، قصر الأرسنة التي تشدها.

ولا يضير الجواد الأصيل طنين ذبابة زرقاء بداء الحقد!

ويخطئ كل من يطالبني بذكر أسماء لهذه المخلوقات البشرية، أو شبه البشرية، ذلك لأنها لا تستحق، أبداً، العبور تحت لسان هذا القلم..

«العربي» ١٩٩٠/٩/٢٨

حين يصير القانون شيئاً
والعدالة.. شيئاً آخر

يوماً إثر يوم، تشتد علينا حمى الخليج، فليس ما يجري أو يوشك أن يجرى هناك حدث آخر من أحداث من أحداث المرحلة. إنه فاصلة تاريخية، ومحور لانعطاف هائل في صيرورة الإنسان العربي، إلى أين؟ لا أدري ولا أريد أن أتنبأ، لا خوفاً من سوء عواقب الاجتهاد، بل لأنني لا أملك القدر الكافي من الحمق، بحيث أدعى القدرة على التحكم بالرياح وضمان جريانها بما تشتهي سفني. ثم إنني أحتفظ لنفسي بالحق في الفهم الخاص، وربما المختلف، لمقولة التفاؤل الثوري.. وحتمية التاريخ.. وما أشبهه.

بيد أن عواصف الرمال الخليجية الملتهبة لم تحجب الرؤية– مثلي مثلكم– عما يجري هنا، فينا ومن حولنا، تحت وطأة آلة الاحتلال الإسرائيلي.

وبما أن وزير الأمن الإسرائيلي أرنس«يطمئننا» من بيت مهدوم في مخيم البريج إلى بيت مهدوم آخر، ومن أسرة مشردة إلى أسرة مشردة أخرى، بتصريحات متواترة عن صيانة القانون والالتزام بالقانون وعدم تجاوز القانون فإنه يصبح من حقنا ومن واجبنا أن نحاور الوزير أرنس في مسألة القانون هذه. ومما يدفعنا إلى مزيد من الإصرار على مناقشة الوزير أرنس، وكل ما يمثله من تاريخ وقيم

وممارسات، في مسألة القانون هذه، ما أقدمت عليه قطعان الفاشية في الآونة الأخيرة من كتابة شعارات، بالخط العريض، على جدران محكمة العدل العليا الإسرائيلية لعل أبسطها وأكثرها وضوحاً ذلك الشعار القائل: «لا محكمة عدل عليا للعرب».. «محاكم ميدانية للعرب».

ومع أن محكمة العدل العليا الإسرائيلية هي التي أطلقت أيدي قوات الاحتلال لتفعل ما فعلت وما تفعل في مخيم البريج، فإن هذا الشعار يوحي بما يلي:

«محكمة العدل العليا الإسرائيلية تحمي العرب من الاحتلال والقمع والهدم والتشريد والتهويد، لذلك ينبغي إبعادهم عنها أو إبعادهما عنهم».

ولسنا بحاجة إلى ذكاء استثنائي لنفهم أن هذا الشعار يظل جزءاً لا يتجزأ من عملية تزوير تاريخية متكاملة، تتنافر أطرافها على السطح لتتآلف في العمق، ولتتكامل في نهاية الأمر حول محور جوهري واحد ثابت ودائم.

وإذا كان الغزاة الأمريكيون قد أوغلوا في لعبة القناع القانوني عبر جميع فظائعهم في فيتنام فإننا نلاحظ أن تلامذتهم في إسرائيل غزوهم في هذه اللعبة وتفوقوا عليهم إتقاناً ومثابرة. فمحاكمة بضعة جنود بتهمة تجاوز الأوامر وتجاوز القانون في المناطق المختلفة، لا

سيما منذ نشوب الانتفاضة، يترك مجالاً رحباً للإيحاء بأن ما عدا بعض التجاوزات التي ضبطت قانونياً، فإن كل شيء آخر هو قانوني في جوهره.

وبهذا المنطق يصبح الاحتلال نفسه قانونياً، ويصبح مصرع ما يقارب الثلاثمائة طفل قانونياً، ويصبح الإجهاض المتكرر بفعل الغازات قانونياً، ويصبح الهدم والإبعاد والعقوبات الجماعية أمراً قانونياً، ويصبح من السهل ابتكار القوانين وارتجالها لتغطية ما لا تجوز تغطيته، حتى لكأن القانون، ما دام قانوناً، فإنه يحمل في ذاته ولذاته كل المبررات والتخريجات المطلوبة لتحويل الدنس إلى طهارة والشر إلى خير والباطل إلى حق.

وتندرج الأوامر العسكرية في خانة القانون المدني، لأنها تكمله ولا تناقضه وتخدمه ولا تتجاوزه. وهكذا فإن الأوامر العسكرية في كل مجتمع تعكس طبيعة هذا المجتمع وطابعه السياسي-الحضاري.

وما دام العالم منقسماً إلى مجتمعات متفاوتة في حضاراتها وأمزجتها وتطلعاتها، فإننا نلاحظ ما كان قائماً منذ القدم من تفاوت بين الأوامر العسكرية. ويسهل علينا الاستنتاج بأن القانون ليس مرادفاً للعدالة بالضرورة، وفي كل مجتمع، وفي أيه حقبة. كما يسهل

علينا الاستنتاج بأن علم الوراثة يطال القوانين أيضاً ويضع الحدود الفاصلة بين ما هو عادل وما هو مناف للعدالة منها.

لقد عرفت البشرية أوامر من طراز: «إذا دخلت مدينة لا يفتك أن تقتل سكانها بحد السيف وأن تستأصلهم أطلة الدن وأن تبيد كل ما يكون في تلك المدينة وأن تذبح حتى بهائمها».

وبالمقابل، فقد عرفت البشرية أيضاً أمر أبي بكر الصديق إلى أسامة بن زيد «لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

وبالمقابل فإننا نشهد اليوم الأوامر بإغلاق مسجد البريج في وجه المصلين وهي أوامر واضحة قانونية بلا ريب ويستطيع الجندي الذي يضع كعب بندقيته رتاجاً لباب المسجد أن يقدم لك غطاء قانونياً وفق المقاس المطلوب!

ويوم احتل الصليبيون القدس سنة ١٠٩٩ نفذوا الأوامر القانونية الصادرة لهم فذبحوا أكثر من سبعين ألفا هم سكانها بمن فيهم الأطفال والنساء والشيوخ.

وبالمقابل فحين استردها صلاح الدين في سنة ١١٨٧ تسامح مع القتلة وتصدق على أراملهم وأيتامهم واكتفى بالفدية وأطلق سراح من لم يجد إليهم سبيلا.

وبموازاة أوامر صلاح الدين القانونية فقد شهدت البشرية بعد الواقعة بأعوام قليلة كيف أصدر الوحش الإنجليزي ريتشارد «الملقب بقلب الأسد» أوامره، القانونية طبعاً بذبح ٢٧٠٠ أسر في عكا.

ويكرر التاريخ أمثال أبي بكر وصلاح الدين ويكرر أيضاً أمثال الوحوش ريتشارد وموسوليني وأدولف هتلر.

ويتكرر صدور الأوامر وصك القوانين، وتتكرر الحقيقة بأن القانون ليس بالضرورة مرادفاً للعدالة، وحين يصير القانون شيئاً والعدالة شيئاً آخر، فإن كل هالات القداسة والمصداقية والمشروعية التي تحيط بالقانون، تسقط وتتلاشى على عنق ذبيح وعلى أنقاض بيت مهدم.

«عبير» نوفمبر ١٩٩٠

المطلوب :

كمامات ضد جراثيم الطائفية

نـذكر حكايـات أجـدادنا عـن أوبئـة الطـاعون والكـوليرا والحصـبة التـي كانـت تجتـاح بلادنـا ولا تتركهـا إلا وقـد حملـت معهـا المئـات والآلاف مـن الضـحايا والقلـوب المفجوعة والخواطر المكسورة.

ويتقـدم الطـب، عالميـاً، فقـد أصبحت هـذه الأوبئة أقـل خطـراً لتحـل محلهـا أوبئـة مـن نـوع جديـد، بعضـها يـدخل خانـة الأمـراض النفسانية.

ونـذكر وبـاء الإقليميـة ووبـاء الطائفيـة والقبليـة فـي هـذا الإطـار الذي يبدو سياسياً على السطح إلا أنه قادم أصلاً من أغوار النفس فكراً وحلماً ووهماً.

ولعـل الخطـر الوبـائي الأكثـر تفشـيا الآن هـو الطائفيـة التـي أصـبحت لفظـة شـبه عاديـة فـي هـذه الأيـام رغـم كونهـا هامشـية فـي قاموس حياتنا على امتداد القرون.

إن ارتفـاع مسـتوى الـوعي السياسـي والاجتمـاعي لـدى الشـعب العربي الفلسطيني منذ القدم، جعل الطائفية أمراً معيباً أو غير مقبـول لـدى جمـاهير هـذا الشـعب القائمـة أصـلاً علـى التعدديـة المذهبيـة والعقائدية.

بالإضـافة إلـى الأسـباب الخارجيـة التـي تشـجع علـى التعصـب الطائفي، والمقصود هو المحرضات القادمة من خارج هذا الشعب، فإن العامل الذاتي له دوره النافذ. ويتلخص العامل الذاتي، كما نرى

في مزاج الإحباط الذي يسيطر على قطاعات واسعة نظراً لاستمرار العذاب الفلسطيني والانتفاضة الباسلة دون نتائج سياسية ملموسة على الساحة.

ونحن نحذر من مزاج الإحباك لأنه قائم في الأساس على تصور خاطئ لمجريات التاريخ، ذلك أن حركة التاريخ لا تتم بشكل آلي – رياضي، ولا يمكن حسبان الأسباب والنتائج بشكل سطحي أحادي الاتجاه.

ومن معاني الإحباط، فقدان السيطرة على الذات وعلى الفكر وعلى الوعي، ولا نرى مبرراً لفقدان هذه السيطرة، لأن عدالة قضيتنا وأطروحاتنا المعروفة غير قابلة للنقض الأبدي، وتبقى مسألة الوقت والإرادة وصواب الرؤية وكلها في صالحنا.

إن المتنورين من أبناء هذا الشعب، على اختلاف عقائدهم واتجاهاتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية، مطالبون بالعمل الجاد لتدارك الأمور. ولا يتم مثل هذا العمل عشوائياً، لذلك نرى ضرورة عقد منتدى فكري أو منتديات فكرية لوضع الأسس لمثل هذا العمل ولتحديد الفعاليات المطلوبة وتنفيذها دون إبطاء.

ومثل هذا العمل من شأنه أن يقوم مقام الكمامات الواقية من جراثيم الطائفية.

«العربي» ١٩٩٠/١١/٢٣

صحيفة جديدة؟

لا ، شكراً، نريد جرد الحساب أولاً

يـدهش المـرء أحيانـاً، لمـدى الصـفاقة البدائيـة، فهـو يتعامـل بهـا بعـض المسـئولين العـرب مـع جمـاهير هـذه الأمـة المقهـورة، المغلوبـة علـى أمرهـا. وتتجسـد هـذه الصـفاقة في التجاهـل التـام لوجود هـذه الجمـاهير حتـى في القضـايا المصـيرية بالنسـبة لهـا، والتـي تتصـل مباشـرة بلحم الناس ودمهم وأطفالهم ومقدراتهم وأحلامهم.

يلتقـى هـؤلاء المسـئولون «القـادة» ويتفقـون دون الرجـوع إلـى الجمــاهير. ثــم يختلفــون دون الرجــوع إلــى الجمــاهير. ويتفقــون ويختلفـون ويعلنـون الحـرب ثـم يعلنـون السـلام أو الاستسـلام دوم الرجوع إلى الجماهير.

يحبـون نيابـة عنهـا، ويكرهـون نيابـة عنهـا، ويـأكلون ويشـربون ويترفهون نيابة عنها.

ويتصـرفون بمـا يوحي أحيانا بأن هـذه الجمـاهير ليسـت سوى عبء عليهم، أو أنها مجرد قطع أثاث في قصورهم حديثة النعمة. ويكرسـون هـذا القـدر مـن الجمـاهير، أو ذاك للـذبح مـع معـاركهم «الشخصـية». كمـا يكـرس الوالـد المسـئول عـن الأسـرة عـدداً مـن الأغنام والماعز للذبح في عرس ولده البكر.

هذا التغييب التام للجماهير، أصبح جزءاً لا يتجزء ولا يقبل النقاش، في تقاليد الحكم العربية، حيث يلتقي «التقدمي بالرجعي»، و"الجمهوري"، «بالملكي»، «بالأميري»، وهلم جرا.

لقد بلغت الجراة ببعض هؤلاء المسئولين "القادة" حد الكلام على «النظام العربي»، باعتبار صيغة «النظام العربي» الوهمي، بديلاً لصيغة «الوحدة العربية» الحلم – المطلب – المصلحة.

نحن ندرك الفرق بين هذا النظام العربي وذاك، ونعني حتى الفرق الصغير، آخذين بالقول الفرنسي الشهير: «عاش الفرق الصغير!»، غير أننا لا نجد العزاء الكافي في هذا التفاوت الطفيف، ما دامت الطبيعة الأساسية في الحكم العربي «لا النظام العربي، كما يقولون» هي طبيعة تجاهل الجماهير واستثنائها، وتغييب دورها الحقيقي عن الفعل الدائر على أرضها ولحمها وحلمها.

خذوا مثلاً، ما جرى ويجري على الأرض العربية «العراق الآن» من أحداث دامية فاجعة، ومن أمور لا تصدق في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية على السواء.

وانظروا كيف أخذ «القادة» يطلون برؤوسهم من خلال الدخان والركام، واحداً تلو الآخر، لا ليعيدوا النظر فيما فعلوه بمقدرات هذه الأمة، ولا ليستخلصوا العبر، ولا حتى للتعزية في الشهداء، بشراً وعمراناً وثقافة، بل لتجاهل الجماهير مرة أخرى،

ولمد الأيدي والأعناق فوق جثث هذه الجماهير وخرابها ودمها، من أجل مصالحة عشائرية فوقية أخرى، ولمتابعة الحال، كأن شيئاً لم يكن.

إنهم يطالبون بفتح صفحة جديدة و«برأب الصدع في الصف العربي».. وبما شابه ذلك من عبارات سامة ولئيمة ومهينة، حتى لكأن كل الدمار والموت والحزن والدم والعار الذي لحق بنا على قطعة عزيزة من وطننا البائس ليست أكثر من كأس نبيذ اندلقت خطأ على موائدهم العامرة.

بعد صبرا وشاتيلا هتفنا من أعماق قبورنا الجماعية: «لا نسيان ولا غفران».

وإذا كنا واجهنا الردي، عيناً لعين وانفاً لأنف، في وقفة تحد أسطورية إزاء الظلم الإسرائيلي والأمريكي، فلماذا يفترض فينا الحكم العرب أن ننسى وأن نغفر ما فعلوه هم بأبناء أمتنا الذبحاء؟.. ولماذا تسوغ لهم أنفسهم أن يصبح ظلم ذوي القربى «أقل» مضاضة؟!

ها هم يطلون برؤوسهم من خلال الدخان والخراب، في دعوة بائسة وسافلة إلى «نسيان الماضي وفتح صفحة جديدة مع العلاقات العربية».. وإذا كانوا يهربون من التفاصيل فنحن لا نهرب منها على الإطلاق.. ونحن على يقين من أن أشقاءنا في الكويت وفي العراق وفي كل قطر عربي آخر ليسوا بحاجة إلى «فتح صفحة جديدة»، ذلك لأن الصحفات القديمة من تضارب المصالح والمطامح هي صفحات فوقية سلطوية حكمية.. أما جماهير هذه الأمة فلا تملك سوى صفقة الوحدة، وحيدة المصير والمصلحة والحلم.. وإذا كان لديها حساب قديم تطمح

إلى تصفيته فإنه بالتأكيد ليس حساباً شعبياً، بل هو حساب كل شعب مع سلطته، وحساب كل الأمة مع حكامها مغتصبي السلطة عبر فوهات المدافع التي آذت العرب أنفسهم أكثر مما آذت أعداء حقوقهم وتطلعاتهم وأجيالهم.

ثمة حاجة وحاجة ملحة، لصفحة جديدة من تاريخ عربي جديد، تصنعه الملايين الطيبة المبدعة النشطة، صفحة جديدة من تاريخ جديد يكتبه الإنسان الجديد، الحر المنعتق المعافي، صفحة جديدة خارج كتاب الذل والاستغلال والاستعباد والاستصغار والاستضعاف و"الاستهبال"، خارج كتاب الخطب الرسمية المتقعرة الزائفة المصلصلة بسيوف البلاغة الإنشائية المتربة، صفحة جديدة يكتبها الشعب الخارج لتوه من ظلام الأمية بفضل كفاحه الخاص، الخاص جداً، وليس بفضل خطط الحكام الخمسية والعشرية البهلوانية..

صفحة جديدة. معكم؟ لا، شكراً. نريد جرد الحساب وتصفية الحساب أولاً.. وستكون من بعد صفحة جديدة للديمقراطية، للشورى، للعدل وللحرية، للتقدم وللوحدة، الوحدة – حلماً – مصلحة – ومطلباً تاريخياً.

معكم؟ لا

منا؟ نعم

«الاتحاد» ٨ مارس ١٩٩١

إعلام التنوير وإعلام التعتيم

حين يرن جرس التليفون في المنزل، في ساعة متأخرة من الليل، فإن المرء المستيقظ لتوه، يشهر بانقباض شديد ومفاجئ، لأن مثل هذه التليفونات الليلية المتأخرة في أغلب الأحيان نذير شر، لا بشير خير.

ويكون المرء أكثر عرضة للانقباض حين يكون في أقربائه أو أصدقائه شخص مريض أو غائب. فكيف إذا كان الرميض وطناً والغائب شعباً؟!

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، حين رن التليفون في بيتي، وفي الأقارب والأصدقاء أكثر من مريض وأكثر من غائب، وأعترف بأنني فكرت فيهم وأنا أرفع سماعة التليفون، ولم أفكر آنذاك بالوطن ولا بالشعب:

- هالو
- هالو
- مين
- هذا أنا وليد.. لقد بدأت الحرب في الخليج.
- شكراً على الاتصال.. تصبح على خير.

أي خير؟ لقد أصبحنا على حرب. ولا بد من استيضاح الأمور وتعقب الأحداث.

وهرعت إلى جهاز الراديو.. ثم إلى جهاز التليفزيون، ثم إلى الترانزستور. كالملدوغ الباحث عن قطعة ثلج في البرية.

إذاعة عربية تبث تلاوات من آى الذكر الحكيم.. نقلة أخرى.. إذاعة عربية تتابع بث أغنية لأم كلثوم.. نقلة أخرى.. إذاعة عربية تبث حواراً عن الفن كما أعتقد.. ونقلة أخرى.. إذاعة عربية أخرى تبث صمتا عربياً آخر.

ولم يكن هناك سوى إذاعة إسرائيل العبرية.. في بث نشط عن الحرب، أحداثها، إمكانياتها، آفاقها وهلم جرا.

بعد قليل بدأ التليفزيون الإسرائيلي البث، ولم يكن هناك من المحيط إلى الخليج سوى.. التيلفزيون الإسرائيلي.

وتظلم العينان ويغيم القلب: ولو! النار تشتعل وأهل البيت نيام، والجار «لو جار!» هو وحده الساهر؟

أما من أمة بين المحيط والخليج سوى أمة إسرائيل؟

أما من إعلام بين الماء والماء سوى الإعلام الإسرائيلي؟

ولو! ألا نستطيع أن نتابع هذا الحدث العربي إلا باللغة العبرية؟

وأقسم لكم قسماً عظيماً إنني في هذه اللحظات لم يحضرني سوى المطلع من قصيدة شاعرنا يوسف الخطيب.

أكاد أؤمن، من شك ومن ريب.
هذي الملايين ليست أمة العرب!

أحك، وإذا كانت إذاعات الملوك والأمراء والشيوخ والرؤساء كلها ساهرة، وقائمة قاعدة، فماذا تتوقع أن تسمع منها عن الحرب؟ وهل يخطر ببالك أن تعترف أجهزة إعلام «تعتيم» السلطة بأنه منذ الفتوحات العربية الإسلامية لم تشارك الشعوب العربية مشاركة فعلية في أية حرب وفي أي سلام، وفي أية هدنة أو وقف إطلاق نار؟

ثمة إعلام للتنوير وأخر للتعتيم.

ويحز في نفوس الأحرار أن الإعلام السائد في الوطن العربي هو إعلام التغييب التام للحقيقة التي تعني الأمة وتطال مقدراتها ومصيرها. وهذا الإعلام التعتيمي قائم في صميمه على قلب الحقائق وتزوير الوقائع فالهزيمة تصبح «صموداً» والكارثة العسكرية تصير «نكسة»، وقاهر الشعب هو «حبيب» الشعب والعاجز عن تحرير أرضه المختلفة هو «بطل التحرير»، والمدحور هو المنتصر والدكتاتور هو «رمز» الأمة، والحاكم المطلق الصلاحيات هو الحامي والمنقذ والمخلص والحلم والأمل، وهذا، مما يتنافى مع الحق والحقيقة والمنطق والتاريخ والأخلاق والضمير والمصلحة والواجب.

لسنا بهذه السذاجة حتى نعتقد بوجود إعلام في العالم كلع يتمتع بالحرية المطلقة بيد أن الحرية النسبية هي أمر ضروري للإعلام وللقضاء في أي مجتمع حر «نسبياً».

وبغياب هذه الحرية النسبية، تضيع الحقيقة وسيضيع العدل ويغيب المنطق وتعم الجهالة ويسود القمع وتتبلبل الخطأ وتغيم الرؤية وتنعدم الرؤيا وتنهدم المقاييس ويتصدع البنيان الاجتماعي، ويتضعضع الكيان السياسي ويتزعزع الحلم وتمحى الآفاق ويطم اليأس ويعم الهلاك والدمار والتخلف والفوضى.

هنا يأتي دور الإعلاميين الطلائعيين الأحرار، هنا يأتي المعنى الحقيقي للقلم الجريء. وفي هذه الامتحان يكرم الكاتب أو يهان. هنا تتجلى المواقف ويتجلى الجوهر ويبرز التفاوت بين قلم سيدة الضمير وآخر سيده الارتزاق والتسلق.

وفي غمرة الحرب الأخيرة أظهرت بعض الأقلام قدرتها النبيلة على التوفيق بين العقل والقلب، ولم تتخل عن واجبها التاريخي في التمييز بين الحق والباطل والصح والغلط والصواب والضلال، بينما أظهرت أقلام أخرى قدرتها الخارقة على ممارسة الانتهازية المنحطة بصفاقة ونذالة تامتين، ومن هذا البعض الساقط من حاول ويحاول مهاجمة أمريكا ومهاجمة حكام إسرائيل واسترضاء أمريكا بما لا يغضب الاتحاد السوفييتي ولا يغضبه، وهكذا، حبراً على ورق وزيفا

على زور، وخطلا على خطأ، ما دام الأجر مدفوعاً من أكثر من جهة وما دام الرضا دائماً والنعمة موفورة.

وهنـا. مـرة أخـرى، يـأتي دور الإعلاميـين الطلائعيـين الأحـرار والمسئولين إزاء الكلمة، إزاء الشعب والوطن، إزاء التاريخ والضمير.

اللهم إني بلغت!

«الاتحاد» ١٩ إبريل ١٩٩١



فهرس